

حِجَّة

أَهْلُ الدَّعْوَةِ وَالْإِسْتِغْلَالِ فِي

مَكَّة وَالْمَدِينَةِ

مَقَائِلُهَا - تَارِيخُهَا - أَهْدَافُهَا ..

تَأَلَّفَ

بِدَاوُودُ عَوْشٍ



صفحات خالدة من تاريخنا الإسلامي

حِجْرَةٌ

أَهْلُ الدَّعْوَةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ

فِي

مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ

مَقَائِلَهَا - تَارِيخُهَا - أَهْدَافُهَا ..

تَأَلَّفَ

بِكْرِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾

(المؤمنون : 52)

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
بِالْآخِرَةِ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء : 74)

أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال :
«المقتول دون ماله شهيد» وقال أيضا : «أفضل الأعمال كلمة حق
يقتل عليها صاحبها عند سلطان جائر» (مسند الإمام الربيع بن
حبيب)

كلمات إسلامية مضيئة

(الناس منا ونحن منهم إلا مشركا عابد وثن ، أو كافرا من أهل الكتاب ، أو إماما جائرا) أبو حمزة المختار الشاري : عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

(الإسلام ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلال حلالا ، لانبغي به بديلا ، ولانشتري به ثمنا قليلا ، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) عبد الله ابن يحيى طالب الحق : عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .
(إن المذهبية في الأمة الإسلامية لا تتحطم بالقوة ولا تتحطم بالحجة ، وإنما تتحطم المذهبية بالمعرفة والتعارف والاعتراف) الأستاذ علي يحي معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية .

(ومنهج التاريخ في مقدمة المناهج التي تحتاج الى إعادة البناء ، سواء منها ما يختص بالتاريخ الإسلامي وما يتعلق بالتاريخ البشري كله ، لأن درس التاريخ هو درس في التربية في ذات الوقت) عن كتاب حول التفسير الإسلامي للتاريخ : محمد قطب .

مقدمة

إن هذا الكتاب يهدف أولا الى تأصيل التربية الفردية بالأخلاق القرآنية، النابعة من أرواح شهداء الإسلام الزكية . هؤلاء الأبرار، قد جسموا تلك الأخلاق الخالدة في سلوكهم العملي فداء وتضحية إزاء الأحكام الجائرة التي عرفها عالمنا الإسلامي الذي ابتعد عن المنهج القرآني ، بعد حكومة الخلفاء الراشدين .

وهكذا ، فإن هذه الدراسة التاريخية والأدبية عن الحركة الإباضية التي قادها طالب الحق وأبو حمزة المختار الشاري ، سيعترضها بعض التقصير نظرا الى قلة وجود المصادر القديمة المباشرة التي تدرس هذه الحادثة التاريخية، لأن الدراسة الموضوعية الجادة ، تتطلب الآثار والوثائق والبراهين الكافية لتزيل وتبعد كل إبهام وشك ، قد يقع فيه الباحث النزيه الذي يريد الحقيقة . وبالرغم من هذا العائق ، فاني سأبذل كل جهدي لأقدم صورة إسلامية مضيئة للقارئ الكريم عن هذه الحركة الإسلامية المباركة ، لتكون قدوة حسنة ، لجيلنا المسلم حتى يتحقق المجتمع المسلم الصالح إن شاء الله .

يبد أن النظرة الموضوعية الى الدراسات العامة التي كتبت عن الإباضية قديما وحديثا ، لم تخل من الذاتية والأحكام المسبقة المأخوذة عن كتاب المقالات القديمة والمعاصرة الى يومنا هذا ، وهذا بطبيعة الحال يتناقض كلياً مع الروح العلمية ، لاسيما النقد الموضوعي .

ومن هنا ، فإن الأمانة الأخلاقية ، قد دفعني قبل أي اعتبار لأزيل هذه الغشاوة عن أنظارنا لندرك الحقيقة التاريخية موضوعيا ، دون إبهام ومغالطة . وهذه الدراسة تعد لبنة جديدة تضاف الى التراث الإسلامي الأصيل .

وعلى أية حال ، فهذه الدراسة مرتبطة بتاريخ أمتنا الإسلامية التي شرفها الله عز وجل ، برسالة القرآن الكريم الذي يعد أعظم وأكمل دستور في الأرض ، وهكذا نجد عدة شخصيات إسلامية ، قد استرخصت النفس والنفس لما وجدت أن كرامة الإسلام قد لطخت وميزان العدل قد ابتعد عن القرآن الكريم وسيرة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

وهكذا نجد طالب الحق وأنصاره نموذجاً مثالياً للفداء ، فقد اشتروا الجنة بالدنيا ﴿إن الله أشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (التوبة : 111) .

وتصديقا ، لهذه الآية القرآنية الكريمة نقول : إن الثورة الإسلامية التي قادها طالب الحق كانت نتيجة حتمية للفساد الخلقي الذي بلغ النهاية القصوى في آخر الدولة الأموية والذي نخر أسسها .

ولكن بالرغم من هذا الانحلال الخلقي ، فإن هناك فتية مؤمنة بربها العزيز ، وقرآنه الكريم الداعي الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . إن هذه الفتية هي أتباع الإمام جابر بن زيد الذين سمو أنفسهم بأهل الدعوة والحق ، هذه الحقيقة التاريخية نلمسها في النصوص الإباضية القديمة . ومن هنا يجب أن نوظف ذلك المصطلح الأصيل .

إلا أن الأمويين قد بدلوا هذه التسمية باسم الإباضية ، نسبة الى عبد الله بن إباض الذي وقف موقفا صلبا ضد السلطة الأموية لاسيما مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان والذي دعاه الى كتاب الله وسنة

نبيه ليحل حلاله ويحرم حرامه ، كما يتبين لنا من خلال الكتاب الذي أرسله اليه .

إذن فالتسمية الإباضية جاءت متأخرة زمانيا .

يقول العلامة نور الدين السالمي في قصيدته كشف الحقيقة :

فما الإباضيون إلا علما لخلفاء الحق منا فاعلما
إن المخالفين قد سمونا بذلك غير إننا رضينا
وأصله أن فتى إباض كان محاميا لنا وماض
قد كان في أيام عبد الملك مع شدة الأمر وضيق المسلك
ومع كل هذا ، فإن إرادة الله ، المطلقة شاءت أن يكون للدولة الاموية
الفصل الاول والاعظم في نشر الاسلام وتأصيله في شمال افريقيا والاندلس
وآسيا الوسطى شرقا ، هذه هي الحقيقة التي يجب ان نعرفها وتعترف
بها لا سيما في عهد هشام ابن عبد الملك 105 - 125 هـ حيث استطاعت
جيوش المسلمين أن تتحدى المسيحية الصليبية في جنوب فرنسا ببواتيه
وكل من تنكر لهذا الفضل الكبير يعد عندنا جاحدا لفضل هذه الدولة .
وقبل نهاية هذه المقدمة ، نقول للقارئ الكريم ، إن هذا الكتاب الذي
أضفناه إلى تراثنا التاريخي الإسلامي سيجعلنا نعيش لحظات ريحانية
تحت ظلال القرآن الكريم وعبق سيرة الرسول الكريم وجهاد النفس الذي
نتعلم منه دروساً في التربية . وفقنا الله ، وسدد خطانا إلى طريق
الصالح والإصلاح .

بكير أعوش - غرداية - 1 - رجب 1410

الموافق لـ 1990/1/18 .

الفصل الأول

أهل الدعوة

في ظل التاريخ الإسلامي

1 - نحن والتاريخ :

لأنستطيع بأي حال من الأحوال أن تقدم للقارئ الكريم صورة موضوعية وصادقة عن الثورة التي قادها طالب الحق ضد السلطة الأموية ، إلا اذا سلطنا الأضواء الكاشفة على البيئة الاجتماعية العامة التي كان يعيش فيها ، ولا بد إذن ، من تقديم عرض موجز للظروف السياسية والاقتصادية التي أدت الى قيام هذه الثورة ، وإلا أصبحت دراستنا ذاتية ، ناقصة ، بعيدة عن النقد العلمي ، والمنهج التاريخي المقارن ، وبدون هذه الدعامة الأساسية ، فإننا نكون قد خرجنا عن الواقعة التاريخية الموضوعية التي ينشدها كل باحث نزيه .

ومما تجدر الإشارة اليه ، أن التاريخ الاسلامي الأصيل ما زال ولا يزال يمثل الدعامة الأولى والتربية الصالحة في تكوين الشخصية الإسلامية وهكذا ، نجد الأمم قديما وحديثا ، تسعى كل السعي في إبراز عظمة شهدائها ورجالها وأعلامها ، مبنية لأبنائها كفاح هؤلاء لتربط بين ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها ، على تلك الأرضية التاريخية... تنطلق منها لبناء حاضرها ومصيرها . وبدون هذا ، فإن الفرد سيعيش في ازدواجية خطيرة بين أصلاته والاغتراب الدائم .

لقد صدق الله عز وجل في تحليل نفسية هؤلاء ﴿مذبذبين بين

ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له
سبيلاً ﴿ النساء : 143 .

وعلى ضوء هذا التحليل يتبين لنا أن التاريخ الإسلامي هو ذاكرة
المجتمع الإسلامي ، مشرقه ومغرب ، شماله وجنوبه ، وإذا فقدنا هذه
الذاكرة فقدنا حضارتنا الإسلامية .

يقول الشاعر الجزائري رمضان حمود في هذا المسار (إذا جهلت أمة
تاريخها ، فقد جهلت مستقبلها ، وإذا جهلت مستقبلها فقد أسرت نفسها
بيدها وألقته في يد غيرها)

التاريخ محيي الأمم ، وقد يكون قاتلها إذا شربته من كأس
غيرها (1) .

وهكذا نلاحظ أن أبناء الأمة الإسلامية تفصلهم فجوة كبيرة عن
تاريخهم المعاصر فضلا عن ماضيهم المجيد .

وإذا كان التاريخ هو ذاكرة الحوادث الماضية لحياة الأمم وعظمة
رجالها ، فإنه قبل كل شيء هو الحضارة التي أجهدت الإنسان الذي بنى
أسسها الفكرية والمادية ثقافيا وتقنيا .

ومن هنا نجد أن القرآن الكريم قد حث المسلمين على أخذ العبر من
الأمم وتوظيفها في المجال التربوي ، لأن هدفها الأسمى هو تربية
النفوس تربية قرآنية ، وجعلها تعيش على قاعدة خلقية سليمة دائما .

يقول الله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿لقد كان في قصصهم
عبرة لأولئى الاباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى

(1) الدكتور محمد ناصر ، رمضان حمود ، الشاعر الثائر : ص : 123 .

بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾
(يوسف : 111)

ومن الملاحظ أن نبغاء الفكر الحضاري ، قد بينوا لنا فائدة التاريخ ودوره الفعال في بناء الأفراد ومصير الأمم .

يقول العلامة الكبير ابن خلدون (اعلم أن فن التاريخ ، فن عزيز المذهب ، جم الفائدة ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم ، حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة)(2) .

2 - ما هي الرؤية الإسلامية المفسرة للتاريخ ؟

من الضروري أن نورد النظرة الاسلامية الى التاريخ البشري لتكتمل الفكرة الموضوعية لبحثنا هذا .

إن الباحث التاريخي حينما يتأمل بفكر ثاقب الرؤية الاسلامية المفسرة للتاريخ ، يلاحظ أن الاسلام له رؤية تحليلية شاملة في هذا التفسير ، وهو ينظر الى الانسان بأنه خليفة الله في الأرض ، ثم فضله على الحيوانات الأخرى تفضيلا عظيما بفضل روحه ، وذكائه وإرادته وقيمه .

ومن هنا نذكر أن الله عز وجل ، قد سخر له ما في السماء والأرض ، لينتفع من نعم الله التي لا تحصى ، الا أن هذا العطاء الخيري يقابله

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، ج : 1 ، ص : 37 .

تحمل المسؤولية أخلاقيا واجتماعيا من الإنسان الذي هو خليفة الله وهذا الانسان سيتحمل جزاء فعله ثوابا أو عقابا لأنه واع وحر في تصرفاته .
﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ (النجم : 41/40/39) .

وفي ضوء هذا الفهم الأصيل للمسؤولية إسلاميا ، ندرك بدهشة أن القيم الأخلاقية هي الدعامة الأولى والجوهرية في بناء أسس الحضارة البشرية فكريا وماديا .

والى هنا يمكننا أن نستنتج أن التفسير الاسلامي للتاريخ ينطلق من قيم أخلاقية . قبل أي اعتبار ، لتربية الإنسان وتهذيبه .

إن المتأمل في الحضارات الإنسانية كالفرعونية والرومانية والأندلسية والحديثة يدرك أنها انهارت بسبب انحرافها عن جادة القيم الأخلاقية ، فانغمس أصحابها في الفساد الخلقي والجنسي كالترف المادي والانحراف الجنسي وطلب اللذة وبخس حقوق الناس وإهانة كرامتهم .

وإذا نزل الفساد الخلقي الى هذا الحمأ فهو الدمار والخراب الأكيد لهذه الحضارة .

لقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة البديهية عند قوم عاد ولوط . ﴿وفي عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم﴾ (الذاريات : 41) ﴿ولوطا اذ قال لقومه أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ (الأعراف : 82/81/80) .

إن بالكأس لمسكنا يتعاطى بالبنان (3).

إن هذه الأبيات تعد انعكاساً أميناً لحياة المجون والترف الذي انغمس فيه بعض هؤلاء الحكام المترفين الفاسقين ، فهل من المعقول أن تترك هذه السلطة الجائرة الخارجة عن منهج الاسلام الأصيل رجال الدعوة الاسلامية الذين نادوا بالرجوع الى الأخلاق القرآنية عملياً .

بيد أن هذه الدعوة القرآنية وجدت ملاحقة ومطاردة من تلك السلطة الجائرة ولكن بالرغم من هذا فإن التاريخ الاسلامي قد عرف شهداء كثيرين ضحوا بأرواحهم الزكية الطاهرة حفاظاً على أصالة الشريعة الاسلامية ، منذ القديم الى عصرنا هذا كالشيخ حسن البنا - رحمه الله - .

ونجد من بين هؤلاء الشهداء : أبا حمزة المختار الشاري الذي ثار على الفساد الخلقي الذي كان ينخر المجتمع المسلم في عهد الأمويين يقول رحمه الله في إحدى خطبه : (يا أهل المدينة إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ، ولا عبثاً ولا لهواً ، لا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا ثأر قديم نيل منا ، ولكننا لما رأينا مصاييح الحق فد عطلت وغنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط) (4) .

ومن خلال هذه الفقرة نستخلص أن التعفن الأخلاقي كان موجوداً في سلوك المجتمع الأموي إلا أن هناك بعض الرجال الثائرين على السلطة

(3) عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، ج : 4 ، ص : 4/8 .

(4) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، ج : 23 ، ص : 131 .

الحاكمة التي اعتمدت على القاعدة (فرق تسد) اذ شجعت النعرات القبلية بين الموالى والعرب والأعاجم والزنوج . يقول العلامة الكبير أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - (ازدادت نيران العصبية القبلية والوطنية والجنسية التي كان أشعل فتيلها بنو أمية فصارت أحمى سعارا وأقوى لهيباً بقي عصر العباسيين فأساس دعوة بني العباس في حقيقته كان يقوم على ادعاء حق عنصري ليست في مواجهة آخر . لكنهم في سبيل نجاحهم في دعوتهم اختاروا سياسة (فرق تسد) اذ جعلوا القبائل العربية يقاتل بعضها البعض من ناحية ثم أنشبوا نار الخصومة والعداء بين العرب والعجم من ناحية أخرى)(5)

ومن خلال هذه التناقضات الصارخة ظهرت حركة إسلامية أصيلة بزعامة طالب الحق لتصحيح هذا المسار المنحرف ، والدعوة الى الأخوة الإسلامية بين المسلمين كافة ، لافضل لأحد على آخر ، الا بالتقوى والعمل الصالح والبعد عن الهوى .

ولا بد لنا ، ونحن في بداية المطاف أن نشير إشارة خاطفة الى أن تاريخ الإباضية قد عرف التحريف والتزييف لأسباب سياسية ، بحيث نجد عدة أقلام قديمة ومعاصرة قد عدلت عن القيم الاخلاقية وركبت مطية الذاتية بدلا من الموضوعية ولهذا السبب نرى أنه من الضروري أن نعالج هذه المسألة بصورة موجزة جدا ، بالرغم من أن هذه الفكرة قد طرحتها في كتبي السابقة والهدف من هذا هو تصحيح المفاهيم التي

لاتزال راسخة في أذهان الأعلام فضلا عن عامة الناس ﴿وذكر فإن
الذكرى تنفع المؤمنين﴾ (الذاريات : 55)

إن هذه المقدمة تعد ضرورية واستلزامية لفهم الفكر الإباضي تاريخيا
وعقائديا لأن الدراسات المعاصرة التي كتبت عن الإباضية الى حد الساعة
لم تحرر بعد من كتاب المقالات القديمة المتميزة بالذاتية والتناقض مع
أصول المذهب الإباضي الذي سنشرح بعض عقائده وتاريخه إن شاء الله .
ومن الضروري إذن أن نضع تلك الأقلام في ميزان النقد ولنترك
الحكم للقارئ الكريم أن يصدره سلبا أو إيجابا على ما كتبناه .

3 - أهل الدعوة وكتاب المقالات قديما وحاضرا :

ومما لاشك فيه أن غلبة الكتاب المعاصرين لايزالون يعتمدون على
كتاب المقالات القدماء عندما يريدون أن يكتبوا عن الإباضية ، فاعتقدوا
أن الحق الدامغ لا يدرك الا من خلال تلك المقالات القديمة ، ومن هنا
استمسكوا بها فاعتبروها حجة لاتفند ولا ترد ولو كانت تناقض الأخلاق
القرآنية .

ولا ريب أن هؤلاء قد جاهلوا أو تجاهلوا أن العوامل السياسية
والمصالح المادية هي التي توجه الرأي العام قديما وحاضرا .
ومن هنا نجد أن المذهب الإباضي قد حرف لأنه وقف ضد السياسة
الأموية والعباسية الظالمة اللتين رأتا أن عقائد الإباضية تهدد مصالحها
دينيا واجتماعيا وسياسيا .

فالمذهب الإباضي كان يمثل الصحة الاسلامية في تلك الفترة ، وما
أشبه الماضي بالحاضر في العالم الاسلامي ، فالصحة الاسلامية لاتزال
تعاني التزوير والتشهير والمطاردة في كل مكان .

وهكذا نستطيع أن نقول بكل يقين ثابت إن هؤلاء الكتاب قد افتقروا إلى أبسط عناصر البحث العلمي ، والتحقيق المنهجي ، وذلك بعدم الرجوع إلى المصادر الإباضية المباشرة القديمة والجديدة .

والأدهى من هذا كله ، أن هناك من يدعي أنه قد اعتمد على المصادر الإباضية وأشار إليها في هوامش الكتاب .

ولكن النظرة الموضوعية تكذب هذا الادعاء وهذه الدراسة المزعومة ، بحيث أن هؤلاء المؤلفين وقعوا في انزلاق خطير جدا ، وهذا يعد خيانة علمية وأخلاقية وبعيدة كل البعد عن آداب الاسلام (6) .

يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الاسراء : 36) ويقول الرسول الكريم «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع» (رواه مسلم) والجدير بالذكر أن هذه الفرية قد جسمها أغلبية الكتاب المعاصرين ... إن ما كتبوه عن الإباضية يعد بهتاناً وبعيدا عن العقائد الإباضية شكلا ومضمونا .

وهكذا فإن هؤلاء الأعلام قد وقعوا في خطأ فادح فالله لن يغفر لهم هذا الذنب الذي ارتكبوه في حق وحدة الأمة الإسلامية إلا بتصحيحه بيدهم لينجوا من عذاب الله ﴿ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (غافر : 17)

ومما زاد الطين بلة ، أن الناقد الموضوعي إذا أراد أن ينبه هؤلاء ويطلب منهم الالتزام بالموضوعية وأخلاق الاختلاف ، فإن هذا الناقد

(6) انظر : وهبة الزحيلي ، الفقه الإسلامي وأدلته ، الطبعة الأولى ، دمشق .

يتهم بالعصبية وعدم المنهجية التاريخية كما وصف بذلك العالم الجليل الشيخ علي يحي معمر رحمه الله .

وعلى هذا يكون من الضروري أن أورد إجمالاً ما كتبه أصحاب المقالات القدماء عن الإباضية باعتبارهم خوارج وبالتالي هم خارجون عن الملة الإسلامية كما تصفهم تلك الدراسات . إن هذه الأحكام الخاطئة ، توجد في الكتب التالية :

1 - مقالات الإسلاميين للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة 330 هـ .

يقول عن الإباضية (ومن الخوارج الإباضية وجمهور الإباضية يتولى المحكمة كلها ، إلا من خرج ، ويزعمون أن مخالفهم من أهل الصلاة كفر ، وليسوا مشركين ، حلال مناكرتهم وموارثتهم ، حلال غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب ، حرام ما وراء ذلك وحرام قتلهم وسبيهم في السر إلا من دعا إلى الشرك في دار التقية ودان به .

وزعموا أن الدار - يعنون دار مخالفهم - دار توحيد ، إلا عسكر السلطان فإنه دار كفر ، يعني عندهم) (7) .

إن ما كتبه هنا الإمام أبو الحسن الأشعري على الإباضية يعد حكماً خاطئاً ، لأن النصوص الإباضية تفند هذا الادعاء ، فيما أورده في مخالفهم من أهل الصلاة بأنهم كفار وحلال أخذ أموالهم وأن عسكر السلطان دار كفر .

ولو عاد أبو الحسن الأشعري إلى الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع ابن حبيب المتوفى في القرن الثاني الهجري لغير رأيه .

(7) مقالات الإسلاميين ، ج : 1 ، ص : 171 . دار الطبع والنشر ، بيروت .

776 - قال الربيع بن حبيب سمعت جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « الصلاة جائزة خلف كل بار وفاجر وصلوا على كل بار وفاجر »

660 - أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ « من اقتطع حق مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار »

قال له رجل وإن كان شيئاً يسيراً يارسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « وإن كان قضيباً من أراك »

ولو تدبر خطب أبي حمزة الشاري الإباضي المنقوشة في ذاكرة المسلمين في عهد الدولة الأموية لأنصف الإباضية .

يقول أبو حمزة المختار الشاري : (ت : 130 هـ)

(يا أهل المدينة ، الناس منا ونحن منهم الا مشركا عابد وثن ، أو كافرا من أهل الكتاب) (8)

أما بالنسبة لانتساب الإباضية الى الخوارج فهم بعيدون عن ذلك .
إن الرسالة التي بعثها عبد الله بن إياض رحمه الله الى عبد الملك بن مروان تبين لنا هذه الحقيقة (إنا براء الى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأتباعه .

لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا ولكنه أحدث وارتد وكفر بعد اسلامه فنبأ الى الله منهم) (9) .

(8) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، ج : 23 ، ص : 132 .

(9) البرادي ، الجواهر المنتقاة ، ص : 165 .

ومن الاستقراء التاريخي يتبين لنا أن أعظم كتاب المقالات
الإسلاميين ، قد قلدوا الإمام الأشعري في كل ما كتبه عن الإباضية ،
فكيف يستقيم الظل والعود أعوج وعين الهوى لاتصدق .

إن هذه الحقيقة تصدق على هذه الأقلام القديمة التالية :

- 1 - الفرق بين الفرق للبغدادى (ت : 429 هـ)
 - 2 - الفصل في الملل والنحل لابن حزم (ت : 456 هـ)
 - 3 - التبصير في الدين للإسفرايينى (ت : 471 هـ)
 - 4 - الملل والنحل للشهرستانى (ت : 548 هـ)
 - 5 - المعيار المغرب والجامع المغرب ، الونشريسي (ت : 914 هـ)
- أما الكتاب المعاصرون فهم بدورهم قد استمسكوا بتلك المصادر
القديمة دون تقدها ، بالرغم من أنهم درسوا مناهج البحث العلمي والنقد .

4 - وقفة مع الإمام أبي الأعلى المودودي : (رحمه الله)

ومن هنا نحس في نفسنا حرجا ، اذا قلنا إنَّ العالم العظيم ورائد
الصحة الإسلامية الحديثة أبو الأعلى المودودي رحمه الله وقع في هذا
الخطأ نفسه (10) .

يقول - رحمه الله : (وأكثر الخوارج تساهلا الإباضية الذين يكفرون
كافة المسلمين ولا يقولون بشركهم فهم عندهم غير مؤمنين يقبلون
شهادتهم ويتزوجون منهم ويتوارثونهم ويسمون بلادهم (دار التوحيد) لا
دار الكفر أو دار الحرب ويستثنون من ذلك بالطبع - مراكز الحكومة -

(10) انظر كتابنا إسلام اليوم بين الأصالة والتحريف ، المودودي ، رائد المدرسة
القرآنية ، ص : 139 .

ويحرمون مهاجمة المسلمين سرا ويحلون مهاجمتهم علنا) ثم قال في التعليق لمزيد من التفصيل انظر : عبد القادر البغدادي ، الفرق بين الفرق الشهرستاني ، المسعودي(11) .

والجدير بالذكر أن الكتاب المعاصرين قد وقعوا في نفس الخطأ ، وبالتالي يحسن أن نشير الى مؤلفاتهم .

- 1 - المذاهب الاسلامية للأستاذ أبي زهرة .
 - 2 - الإباضية عقيدة ومذهبا للأستاذ صابر طعيمة .
 - 3 - المعقول واللامعقول للاستاذ زكي نجيب محمود
 - 4 - العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر للاستاذ رمضان البوطي .
 - 5 - الفقه الإسلامي وأدلته للاستاذ وهبة الزحيلي (ط ، 1 ، 2) .
 - 6 - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة . الندوة العلمية للشباب الاسلامي ، الرياض ، (انظر - الاباضية) .
- هذه الدراسات قد تجاهلت النقد الموضوعي ، لاسيما أثر السياسة في نزعة الكتاب القدامى الذين حرفوا عمدا أصول المذهب الإباضي لخدمة السياسة الحاكمة آنذاك ، ثم ربطوها بتاريخ الخوارج وعقائدهم(12) .

5 : تهافت المغالطة القائلة بأن أهل الدعوة خوارج :

يقول الفيلسوف النمساوي فتغشتاين (1889/1951) ((إن اللغة لعبة كسائر أنواع اللعب التي يلعبها الناس في أوقات فراغهم)) (13) .

(11) الخلافة والملك ، أبو الأعلى المودودي ، ص : 144 .

(12) انظر : هذه الدراسة الشاملة في كتاب الإباضية بين الفرق الاسلامية ، للشيخ علي يحي معمر رحمه الله .

(13) محمود فهمي زيدان في فلسفة اللغة ص : 54 ، دار النهضة العربية بيروت : 1985 .

إن هذا القول صحيح ، وذلك أن اللغة المتداولة تحمل عدة دلالات متباينة وليست كالمفاهيم الرياضية والعلمية تفرض نتيجتها بالضرورة لأنها موضوعية دقيقة كقولنا $4=2+2$ ، والحديد يتمدد بالحرارة .

فإذا رفضنا هذه النتيجة ، سنقع لامحالة في التناقض عقلا وتجربة . أما لغة الأدب كتابة أو نطقا فهي تحمل عدة معان مختلفة كلفظ العين مثلا يقصد بها حاسة البصر ، والنفس ، وينبوع الماء ، والنقد الخ ... وقد تكون الكلمة تحمل عدة معان متناقضة كلفظ الجون الذي يقصد به البياض والسواد ، ولا بد من قرينة لتحديد تلك الدلالة .

وعلى أية حال فإن المؤرخين قديما وحديثا يزعمون أن الإباضية فرقة من فرق الخوارج والآن نتساءل هل الإباضية خوارج ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال يحسن للباحث النزيه أن يحدد الدلالة الخارجية ، من عدة الزوايا ، تاريخيا وسياسيا ودينيا ، دون أن نهمل العامل الزمني والمكاني وأثرهما في تطوير اللغة .

وإذا تقصى الناقد الواقعة التاريخية بروح علمية ، سيلحظ أن الفكر الخارجي لا ينطبق على الإباضية سلبا ، أو إيجابا ، كما يرى أعلام الإباضية قديما وحديثا ، بحيث لا توجد أي علاقة فكرية بين الإباضية والخوارج ما عدا قضية التحكيم .

والحق يقال : إن السياسة المرتدة عن الإسلام هي التي ألصقت هذه التهمة بالإباضية الذين حاربوا بكل حزم الأحكام الملكية الفاسدة .

وغني عن البيان أن هناك عدة ثورات ظهرت في تاريخ الإسلام منذ وفاة رسول الله ﷺ الى نهاية وبعد خلافة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورحمه .

أ - حركة المرتدين الذين ظهروا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ب - الثورة الثانية التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه سنة 35 هـ . من قبل الناقمين . وكان مقتله يعد بلا شك ، بداية الفتن والانقسامات الاسلامية الى عصرنا هذا .

ج - الثورة الثالثة هي التي قام بها طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام اذ بايعا عليا كرم الله وجهه ورحمه ، ثم تقضا بيعته واتفقا مع عائشة رضي الله عنها على الخروج على علي رضي الله عنه ، ولقد قامت تلك الفتنة في سنة 36 هـ . وعدد القتلى زاد على عشرة آلاف وتعرف هذه الحرب بوقعة الجمل .

د - الثورة الرابعة التي قام بها معاوية بن أبي سفيان على علي كرم الله وجهه ورحمه ، سنة 37 هـ . وهذه الحرب تعرف بواقعة صفين .

هـ - الثورة الخامسة هي التي قام بها أنصار علي ورأوا أن إمامته شرعية ، فيجب ألا يتنازل عنها ولا بد أن يحارب الخارجين عنها . إن هؤلاء رفعوا الشعار التالي : (جزعنا من البلية ورضينا بالقضية وقبلت الدنية ولا حكم الا لله) .

لقد وقعت هذه المعركة الشديدة في النهروان سنة 38 هـ ، بزعامة الصحابي عبد الله بن وهب الراسبي رحمه الله .

ويعرف هؤلاء عند المؤرخين بالخوارج ، ولا بد للباحث في التاريخ الإسلامي أن يطرح السؤال الموضوعي كيف نسمي أصحاب الثورات السابقة واللاحقة في تاريخنا الاسلامي ؟ لماذا يصر المؤرخون أجمعهم ، على إطلاق لفظ الخوارج على أنصار علي ، الذين رفضوا الخديعة

وأدركوا بعدها السياسي والديني والديني ؟ ثم إن الدلالة الخارجية يفهم منها الجهاد في سبيل الله ، لقوله تعالى : ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما﴾ (النساء : 100)

لذا نرى من اللازم أن نحكم المعيار الإسلامي قرانا وسنة وعلماء ، قبل أن تصدر الدلالة الخارجية على الإباضية ، والتي هي بعيدة عنهم كل البعد ، بحيث لا نطبق عليهم تاريخيا أو دينيا أو سياسيا .

ولقد رأينا سابقا أن عبد الله بن إياض رحمه الله لما بعث كتابه إلى عبد الملك بن مروان الأموي ، والذي تبرأ من ابن الأزرق زعيم الخوارج اذ قال : (وإننا نبرأ من ابن الأزرق وأتباعه من الناس لقد كانوا على الاسلام فيما ظهر لنا حين خرجوا ، ولكنهم ارتدوا منه ، وكفروا بعد إسلامهم فنبرأ إلى الله منهم)

ويقول طالب الحق الإباضي : (ت : 130 هـ)

((الإسلام ديننا ، والكعبة قبلتنا ، القرآن إمامنا ، رضينا بالحلال حلالا ، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا)) (14) .

أما العلامة أبو يعقوب يوسف الوارجلاني (500/570 هـ) فيقول : ((وزلة الخوارج نافع بن الأزرق وذويه حين تأولوا قول الله في ﴿وان أطعتموهم انكم لمشركون﴾ (الأنعام : 137) فاثبتوا الشرك لأهل التوحيد ، حين أتوا من المعاصي ما أتوا ولو أصغرها)) (15) .

(14) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، ج : 23 ، ص : 114 .

(15) الدليل والبرهان ، ج : 1 ، ص : 15 .

وأما قطب الأئمة محمد بن يوسف أطفيش (1332/1236 هـ) فيقول : (والخوارج قبحهم الله قالوا : إن نصب الامام غير واجب وأنه يجب على الناس أن يقيموا كتاب الله فيما بينهم)) ثم قال رحمه الله : ((التوحيد عاصم لدم الموحد وماله وسببه ، ومن أحل مال الموحد أو سلبه أشرك)) (الموحد أي المسلم العاصي) (16) .

ويقول الشيخ السالمي (1332/1286 هـ) ((ولا نرى الفتك بقومنا ولا قتلهم في السر وإن كانوا ضلالا ، لأن الله لم يأمر به في كتابه ولا نرى أن تقذف أحدا ممن يستقبل قبلتنا بما لم نعلم أنه فعله خلافا للخوارج الذين يستحلون قذف من يعلمون أنه بريء من الزنا من قومهم وهم بذلك مظلون)) (17) .

هذه هي المبادئ الإسلامية النابعة من القرآن الكريم والسنة وهل حكم أعلام المذاهب الإسلامية الآخرين بهذا الحكم الإسلامي على الإباضية في دمهم ومالههم وعرضهم أم حكم عليهم بالعنف والضلال والكفر ؟ ولولا أدب الاختلاف في الإسلام لأوردت أحكاما قاسية بعيدة عن كل الاسلام قيلت في حق الإباضية كتبها أكثر الأعلام والمؤرخين القدماء والمعاصرين الذين حرفوا العقائد الإباضية لأهداف دنيئة .

ولكن بالرغم من هذا ، فإن هناك بعض أقلام غير إباضية قد أدركت الخطأ الجسيم الذي وقع فيه أصحاب المقالات القديمة تحت تأثير الأحكام السياسية الجائرة ، ويمكننا أن نشير الى هؤلاء : يقول الدكتور

(16) شرح كتاب النيل وشفاء العليل ، ج : 13 ص : 8 .

(17) تحفة الأعيان سيرة أهل عُمان ، ج : 1 ص : 67 .

عبد الرحمن الصابوني في كتابه تاريخ التشريع : (بما أن الدولة الأموية تراقب جابرا وغيره فسمتهم كما سمت أكثر معارضيه بالخوارج ، وذلك للتنكيل بهم ، والتخلص منهم ، والقضاء عليهم) (18) .

أما الدكتور الأردني عوض محمد خليفات الذي درس المذهب الإباضي دراسة أكاديمية عدة سنوات فقال : (إن الإباضية ليسوا خوارج كما تزعم بعض كتب المقالات والملل والنحل وكما يدعي بعض الكتاب المحدثين الذين قلدوا هذه المؤلفات دون تدقيق وتمحيص ، والواقع أن الإباضية لا يجمعهم بالخوارج سوى إنكار التحكيم .

إن الإباضية حرّموا قتل الموحدين واستحلال دمائهم وحرّموا استعراض الناس وامتحانهم كما فعل متطرفو الخوارج مثل الأزارقة والنجدية . إن المدقق في المصادر الفقهية الإباضية يجد أن أصحاب المذهب الإباضي من أكثر المسلمين اتباعا للسنّة الشريفة والاعتداء بها . أما ما تلصقه بهم بعض المصادر من تهمة فإنما هو ناتج عن أحد أمرين : الجهل أو التعصب إنهم وحدهم الذين طبقوا الشورى في الحكم بعد الخليفين أبي بكر وعمر) (19) .

فأما الدكتور السينغالي عمر صالح بّا فيقول : (فالإباضية - على ضوء ما تقدم - ليسوا بخوارج ، بل هم مذهب كأى مذهب إسلامي آخر ، وإن كان هناك قاسم مشترك بين الإباضية والخوارج ألا وهو رفض التحكيم

(18) محمد العربي مخيلف ، التريّة الإسلامية ، ص : 154 .

(19) الأصول التاريخية للفرقة الإباضية ، ص : 53 .

وعدم إقرار شرعية الحكم الأموي - غير أنهما مختلفان باختلاف آرائهما ومبادئهما . بل لقد حارب بعضهم بعضاً)) (20) .

يتبين مما تقدم أن الإباضية بعيدون كل البعد عن مظاهر التطرف وما قيل عنهم ، وقبل أن ندخل الى صميم الحركة الإباضية في مكة والمدينة ، فلا بد لنا أن ندحض الفكرة القائلة بأن الإباضية غير بعيدين عن مذهب أهل السنة والجماعة .

6 - تهافت المغالطة القائلة ، بأن أهل الدعوة والحق هم أقرب الى أهل السنة والجماعة :

حينما يتأمل الناقد ، هذه المقولة التي قيلت في المذهب الإباضي ، يدرك كل الإدراك طبيعة هذه المغالطة التي وقع فيها بعض المؤرخين القدماء والمحدثين ، وذلك أن هؤلاء قد لطفوا وهذبوا تلك العبارة بقولهم بأن الإباضية هم أقرب الى أهل السنة والجماعة .

يقول الإمام أبو العباس المبرد : (286/210 هـ) صاحب كتاب الكامل : ((وقول عبد الله بن إباح وهو أقرب الأقاويل الى السنة من أقاويل الضلال)) (الكامل ج : 3 / ص : 1040)

إن هذا القول كثيرا ما رده أغلبية العلماء القدامى والمعاصرين ومن بين هؤلاء الإمام الكبير وشيخ الأزهر محمد أبو زهرة رحمه الله اذ يقول : ((الإباضية هم أتباع عبد الله بن إباح وهم أكثر الخوارج اعتدالا ،

(20) دراسة في الفكر الإباضي ، ص : 74 .

وأقربهم الى الجماعة الإسلامية تفكيراً فهم أبعدهم عن الشطط والغلو
ولذلك بقوا ، ولهم فقه جيد ، وفيهم علماء ممتازون)) (21) .

ونفس الفكرة نجدتها في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب
المعاصرة التي تردد ((الإباضية فرقة معتدلة من فرق الخوارج الا أن
أصحابها والمنتسبين اليها ينفون عن أنفسهم هذه النسبة اذ يعدون مذهبهم
مذهباً اجتهادياً فقهياً سنياً يقف جنباً الى جنب مع الشافعية والحنفية
والمالكية والحنبلية)) (22) .

ولكن النظرة الموضوعية الى تلك المقولة القائلة بأن الإباضية هم
أقرب الفرق الإسلامية الى أهل السنة والجماعة تجعلنا نقوم بنقدها
موضوعياً بعيدين عن الأحكام المسبقة والذاتية ، حتى ولو كانت تلك
الأقوال صادرة عن الأعلام الكبار ، لأن الحق واحد لا يمكن ان يتعدد ،
وفي هذا المنحى يعجبني قول الإمام الكبير أبو حامد الغزالي
(505/450 هـ) رحمه الله اذ يقول : ((نرى العقلاء يغلطون في أنظارهم
فاعلم أن خيالاتهم وأوهامهم قد تحكم باعتقادات يظنون أنها أحكام العقل
فالغلط منسوب اليها ، فأما العقل اذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم
يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ما هي عليه)) (23) .

وانطلاقاً من معيار المنطق ، نقول هل الحكم الذي تضمنته تلك
المقولة الإباضية هم أقرب الى أهل السنة والجماعة ، كان حكمها

(21) الإمام محمد أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج : 1 ، ص : 85 . دار الفكر
العربي .

(22) المصدر السابق ص : 15 ، ط : 2 . 1989 .

(23) معيار العلم في فن المنطق ، ص : 24 . ط : 4 ، دار الأندلس ، بيروت .

وجوديا ، تقريريا ، أي خبريا قاله الرسول ﷺ أم كان حكما ،
تقييما ، نسبيا - أي إنشائيا - وعلى أية حال فإن علماء المنطق والبلاغة
دائما يميزون بين الأحكام التقريرية والأحكام التقييمية ، وذلك أن
الأحكام التقريرية إما أن تكون صادقة أو كاذبة معتمدة على البرهان
العقلي أو التجريبي كقولنا : $4 = 2 + 2$: قضية صادقة . الحديد
معدن : قضية صادقة . $7 = 2 + 2$: قضية كاذبة . الحديد لا يتمدد
بالحرارة : قضية كاذبة .

أما الأحكام التقييمية فهي تتميز بالنسبة الذاتية في حكمها ،
كقولنا : الإحسان أقرب الى العدل ، لانستطيع أن نقول لهذا القائل إنك
صادق أو كاذب في فكرتك لأنها نسبية .

ولا بأس أن نورد ما قاله علماء البلاغة في هذا الأمر :

(الكلام قسمان : خبر وإنشاء)

أ - فالخبر ما يصح أن يقال لقائله إنه صادق فيه أو كاذب ، فإن كان
الكلام مطابقا للواقع كان قائله صادقا ، وإن كان غير مطابق له كان
قائله كاذبا .

والإنشاء ما لا يصح أن يقال لقائله إنه صادق فيه أو كاذب (24) .
وفي ضوء هذا يمكننا أن نقول : إن خصوم الإباضية هم الذين ألقوا
بهم ذلك الحكم التقييمي النسبي الذي يكون محل اختلاف بين الناس
حتى لا يثوروا على الأوضاع السياسية والاجتماعية المتعفنة آنذاك في
الدولة الأموية والعباسية ، اللتين سميتا أنصار المذهب الإباضي بالخارجين
المعتدلين سنة وجماعة .

(24) انظر : البلاغة الواضحة ، لعلي الجارم ، ص : 139 .

إن الفكر الناقد لو قرأ بفكر رواف المذهب الإباضي وبعيدا عن الأحكام المسبقة وألزم نفسه بالقيم الأخلاقية الإسلامية لأدرك أن هذا المذهب الإباضي هو السنة بذاته ، لأنه حافظ على أصالة الإسلام ، بحيث كان منارة في وسط الظلام والأعاصير رافعا لواء الجهاد والدعوة الى حكم الله ، لتحقيق العدالة الاجتماعية التي لاتفرق بين هذا وذاك الا بالتقوى والعمل الصالح ، رافضا مظاهر العبودية لغير الله ، هذه الحقيقة نلمس أبعادها دون جدال في ثورة طالب الحق التي ثارت على الجاهلية الأموية التي حرقت موازين الاسلام .

وفي ضوء هذا ، يحسن أن نقول اليوم ، كن مسلما وكفى . بشرط أن يكون عملك صالحا لخدمة الوحدة الاسلامية ومجسما أخلاق الاسلام عمليا ، في هذا الحديث الشريف «المسلم أخو المسلم لا يخنونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم حرام عرضه وماله ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

إذن فالدعوة المذهبية انتسابا للسنة والجماعة ، لاقيمة لها دون عمل إسلامي صالح . يقول الشيخ علي يحيي معمر رحمه الله ((وفي ظل الأخوة الإسلامية والسماح تغيب التحديات وتجدر القلوب نفسها تحاول أن تصحح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهبها أو اعتنقت مذهبها .

ولن نصل الى هذه الدرجة حتى يعترف اليوم أتباع جابر وأبي حنيفة ومالك والشافعي وزيد وجعفر واحمد وغيرهم ممن يقلدهم الناس

أن أئمتهم أيضا يقفون في صعيد واحد لامتزاجهم على الآخرين إلا بمقدار ما قدم من عمل خالص لله)) (25) .

ولعلنا لانعدو الحقيقة اذا قلنا : إن تربية هذه الفضيلة الأخلاقية الخيرة وتأصيلها لا تكون الا بقراءة مصادر غيرنا قراءة متأنية وبعيدة عن الأحكام المسبقة حتى نزيد في إثراء تراثنا الإسلامي الخالد الذي هو تراث المسلمين كافة .

ومن هنا يحسن بنا أن نشير الى بعض الآثار الإباضية التي دافعت دفاعا مستميتا عن القرآن العزيز ، والسنة الشريفة ، والجماعة المسلمة .

7 - أهل الدعوة وآثارهم الفكرية :

اذا عدنا الى المذهب الإباضي ، نجد أن أعظم مصادره لاتزال في حالة النسيان أو التناسي من الباحثين الاسلاميين ، بالرغم من أن المذهب الإباضي له باع طويل وقدم ثابت في الفكر الإسلامي منذ القديم الى يومنا هذا ، وهذه العلة قد طرحناها سابقا . وهنا يجدر بنا أن نذكر بعض تلك المصادر :

- 1 - شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب .
- 2 - المدونة الكبرى في جزئين للعلامة أبي غانم الخرساني .
- 3 - قاموس الشريعة للعلامة جميل بن خميس السعدي وهو يشتمل على 92 مجلدا .
- 4 - بيان الشرع للعلامة محمد بن ابراهيم الكندي وهو يشتمل على 72 مجلدا .

5 - المصنف للعلامة أبي بكر احمد بن عبد الله بن موسى الكندي وهو يشتمل على 42 مجلدا .

6 - مناهج الطالبين ، وبلاغ الراغبين للعلامة خميس بن سعيد بن علي الشقفي وهو يشتمل على 22 مجلدا .

7 - شرح كتاب النيل وشفاء العليل للعلامة محمد بن يوسف اطفيش وهو يشتمل على 17 مجلدا .

8 - مشارق أنوار العقول في جزئين للعلامة عبد الله بن حميد السالمي .

9 - الإباضية في موكب التاريخ في أربعة أجزاء للعلامة علي يحي معمر .

10 - الإباضية بين الفرق الاسلامية للعلامة يحيى معمر .

11 - الإسلام والقيم الإنسانية للعلامة علي يحيى معمر .

12 - فلسطين بين المهاجرين والأنصار للعلامة علي يحيى معمر .

واعتمادا على هذه المعطيات الفكرية ، يبرز لنا دور الإباضية في التراث الإسلامي الأصيل ، بحيث قدمت الى المكتبة الاسلامية ثروة فكرية كبيرة ، ولولا الإطالة لأوردت مصنفات أخرى .

ولا بد لنا ونحن في هذا الصدد الفكري من تقديم فكرة موجزة عن نشأة المذهب الإباضي وعقائده ، دون أن نوسع في هذا الأمر لتكون الفكرة واضحة .

8 - لمحات عن نشأة مذهب أهل الدعوة :

أ - الإمام جابر بن زيد الأزدي :

إن المصادر التاريخية القديمة ، تؤكد أن المؤسس الأول للمذهب

الإباضي ، هو العلامة الفقيه أبو الشعثاء ، جابر بن زيد الأزدي العماني الذي ولد بين عامي 18 و 22 هـ ، بمدينة الفرق العمانية . أما وفاته فكانت بالبصرة سنة 93 هـ . لقد أخذ العلم عن الصحابة رضي الله عنهم ، في مكة والمدينة والكوفة والبصرة ، واتخذ البصرة مسكناً له .

ولقد جاء في طبقات الدرجيني ما يلي : (جابر بن زيد الأزدي رحمه الله ، بحر العلوم العجاج ، أصل المذهب ، وأسس الذي قام عليه نظامه . قال ابن عباس رحمه الله : إسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم عمله) (26)

ثم جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد المجلد السابع ص : 179 : (قال سفيان عن عمرو عن عطاء قال سمعت ابن عباس يقول : لو نزل أهل البصرة عند قول جابر بن زيد لأوسعهم عما في كتاب الله علماً) وكان تلاميذ جابر بن زيد كثيرين ، إذ أخذوا العلم عنه كضام بن السائب والريعي بن حبيب ومسلم بن أبي كريمة ، وعبد الله بن إباح (27)

ب - الإمام عبد الله بن إباح :

إن عبد الله بن إباح يعد الركن الثاني في المذهب الإباضي ، ولد هذا الإمام في زمن معاوية بن أبي سفيان (40/60 هـ) أما وفاته فقد كانت في أواخر أيام عبد الملك بن مروان المتوفى سنة 86 هـ .

(26) الدرجيني ، طبقات المشائخ بالمغرب ، ج : 2 ، ص : 205 .

(27) يحي محمد بكوش : فقه الإمام جابر بن زيد ، ص : 68/34 .

وأما نسبه فهو عبد الله بن إباح بن تيم اللات بن ثعلبة التميمي من قبيلة بني مرة وهي قبيلة عربية عراقية .

والجدير بالذكر أن الأمويين هم الذين سمو أتباع جابر بن زيد بالإباضية .

يقول العلامة نور الدين السالمي :

فما الإباضيون إلا علما لخلفاء الحق منا فاعلموا
إن المخالفين قد سمونا بذلك غير أننا رضينا
وأصله أن فتى إباح كان محاميا لنا وماض (28)
ويقول الشيخ علي يحي معمر رحمه الله (أما الإباضية فقد كانوا
يسمون أنفسهم أهل الدعوة ، ولم يعرفوا بالإباضية الا بعد موت جابر
بزمان) (29)

وعلى أية حال فإن عبد الله بن إباح يعد تلميذا ومناصرا لجابر بن زيد واهتم بتطبيق آراء أستاذه في الحياة العامة .

ج - الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة :

يعد هذا الامام تاريخيا ، الركن الثالث في المذهب الإباضي لأنه تمكن من تنظيم الحركة الإباضية سرا بعد أستاذه جابر بن زيد رحمه الله .

ولقد اعتمد أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة على العلم إذ أنشأ مدرسة سرية في البصرة لتخريج دعاة الحق ، الا أن الحجاج قد سجنه ، ولما

(28) منظومتي أنوار العقول وكشف الحقيقة ص : 19 .

(29) الإباضية ، ص : 35 . وانظر : أبا زكرياء يحي بن أبي بكر ، كتاب السيرة وأخبار الأئمة ، ص : 59 .

توفي أطلق سراحه وذلك سنة 95 هـ ، فلم يلن فاستمر في جهاده المستميت ، وتخرج على يده حملة العلم الذين قضوا خمسة أعوام معه وهؤلاء هم : سلمة بن سعد ، والربيع بن حبيب ، وعبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتي ، واسماعيل بن درار الغدامسي ، وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليميني ، والجلندي بن مسعود وطالب الحق ، وأبو حمزة المختار الشاري .

أما بالنسبة الى وفاته ، فقد توفي حوالي 150 هـ ، في ولاية أبي جعفر المنصور .

وهكذا نجد أن هذه البذرة المباركة التي غرسها أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة في مدرسة القرآن ، استطاعت أن تعطي ثمارها الطيبة في حضرموت وعمان والمغرب العربي الكبير ، وذلك بظهور دول إسلامية في تلك البقاع .

وعلى ضوء هذه الحقائق التاريخية ، يتبين لنا أن المذهب الإباضي قد وجد أنصارا في المشرق العربي ومغربه ، لأنه قائم أساسا على العدالة الإسلامية النابعة من القرآن الكريم والسنة الطاهرة ، هذه العدالة تحارب كل مظاهر الجور والطغيان والفساد الخلقي والتمييز العرقي .

ولكي نضيف الى هذا التحليل التاريخي قيمته الموضوعية ، فلا بد أن نبين العقائد الإباضية مختصرة لتكتمل الصورة أكثر جلاء أمام القارئ الكريم .

عقائد أهل الدعوة والاستقامة :

قبل أن نستعرض الأصول العقائدية الإباضية ، لابد أن نشير الى أن مصادر التشريع عندهم تعتمد أساسا على ما يلي :

1 - القرآن الكريم . 2 - السنة المطهرة . 3 - الإجماع . 4 - القياس والاستدلال ، إضافة الى الاستصحاب والاستحسان والمصالح المرسلة .

1 - التوحيد والصفات الالهية : ويقصد بهذا ، أن يشهد الإنسان البالغ أن لاإله الا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن ما جاء به حق ومن أنكر أحد هذه الأقسام عد مشركا ، والإباضية يرون أن صفات الله عز وجل هي عين ذاته ، وليست هذه الصفات زائدة ولا محدثة ، ولا حالة فيها أو تقوم بها .

2 - الإيمان :

يرى الإباضية أن الإيمان يرجع الى أصول لافصل بينها وهي : الاعتقاد بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل الصالح بالجوارح . ومن أتى بالقول وضع العمل فهو فاسق عاص وكافر كفر نعمة وليس بمشرك ، وأخكامه هي أحكام الملة الإسلامية التي تنطبق عليه .

3 - القدر وحرية الإنسان ، فالإباضية يرون أن القدرة من خلق الله عز وجل ، وهي مرتبطة بالفعل الذي اكتسبناه ، وبالتالي فإن الإنسان حر في اختياره ليس مجبرا على فعله ولا خالقا لفعله .

4 - العدل والوعد والوعيد : إن الله عز وجل عادل كل العدل في وعده - الجنة - ووعيده - جهنم - فالله صادق في وعده ، ووعيده ، إن الخلود أبدي في الجنة والنار .

5 - الشفاعة : إن شفاعة محمد ﷺ لن تكون لمن مات وهو مصر على الكبائر ، وإنما تكون للمسلمين عامة ، للتخفيف عنهم يوم الحساب ، ثم التعجيل بهم لدخول الجنة .

6 - لامنزلة بين المنزلتين ، ويقصد بهذا أن الناس قسمان مؤمن وكافر وليس هناك قسم ثالث .

7 - المنزلة بين المنزلتين :ويقصد بهذا أن النفاق بين منزلة الايمان ومنزلة الشرك فالمنافقون مع المسلمين في معاملاتهم الدنيوية ففي الآخرة فهم مع المشركين .

8 - نفي رؤية الله عز وجل : إن الإباضية يجزمون كل الجزم بامتناع رؤية الله في الدنيا والآخرة ، اعتمادا على الأدلة الشرعية والعقلية معا .

9 - خلق القرآن الكريم : إن الإباضية يرون أن القرآن الكريم مخلوق محدث إلا ما قام الدليل على قدم معناه فقط ، كلفظ الجلالة والرحمن الرحيم .

10 - الولاية والبراءة : إن الإباضية يدينون بالولاية وهي الحب والإخلاص لكل مسلم مؤمن صالح ومناصرته في الله لاغير .

أما البراءة فهي هجرة من هاجر بالبغي والعدوان أو ارتكب كبائر جها ولم يتب ومن هنا تنطبق على الكافرين جملة وعصاة المسلمين الذين خرجوا عن جادة الإسلام ولم يتوبوا توبة خالصة .

11 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : واجبان في كل زمان ومكان على حسب طاقة المسلم .

12 - الإمامة : إن الإباضية يرون أنه لايجوز بأي حال من الأحوال أن تبقى الأمة الإسلامية بدون إمام أو سلطان مهما كانت الظروف السياسية والاجتماعية ، والا لن تقام الحدود الإسلامية هناك .

ومن هنا ، لايجوز الخروج على الإمام العادل ،مطلقا سواء كان إباضيا أو غير إباضي .

أما إذا كان الإمام ظالما فجاز الخروج على سلطته ولكن ليس بواجب لا سيما إذا كان الضرر أكثر من النفع ،ثم إن الإباضية يرون أن

الخلافة لا يمكن أن تكون وراثية ، وإنما يشترط فيها الكفاءة ، الشرعية والمشروعة ، كالتقوى والعدالة ، والنزاهة والذكاء والفعالية والعلم . وأخذ بمبدأ الشورى لقول الله عز وجل ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنِهِمْ ﴾ (الشورى : 38) .

وقال ابن عباس : قال النبي ﷺ «إن أمر عليكم عبد حبشي مجذوع الأنف فاسمعوا وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله» (الجامع الصحيح : ج 3 : ص : 13) .

إن هذا الركن السياسي هو القاسم المشترك بين الإباضية والخوارج . وهذه الإمامة لها أربعة مسالك وهي إمامة الكتمان ، والدفاع والشرارة ، والظهور .

يقول العلامة أبو سليمان داود بن إبراهيم التُّلَّاتِي في مسالك الدين بما يلي : (المسلك هو الطريق ، الظهور ، كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما يأمران بالمعروف جهرا وينهيان عن المنكر ويقطعان يد السارق اذا سرق ، والدفاع كعبد الله بن وهب الراسبي إمام الدفاع اذا كان القتال كانت إمامته واذا زال القتال زالت إمامته ، والشرارة كأبي بلال مرداس بن حدير وهو يخرج بأربعين رجلا الى ما فوق ذلك باعوا أنفسهم لله بجنته ويسمون الشرارة لأنهم اشتروا بالجنة بأنفسهم ، والكتمان هو حالة رسول الله ﷺ قبل الهجرة (30) .

والكتمان هو مرحلة التقية التي كانت في عهد جابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة رحمهما الله .

(30) كتاب عقيدة التوحيد وشرحها ، ص : 31 . ثم راجع هذه العقائد في كتاب مشارق أنوار العقول للشيخ السالمي وكتابه الموجز لأبي عمار عبد الكافي .

الفصل الثاني

ظهور حركة أهل الدعوة والحق في حضر موت واليمن والحجاز

سيقول بعض القراء الكرام : إن الحقائق التي ذكرناها في الفصل الأول ، مبتذلة لافائدة من ذكرها ، وأن لا تكون على حساب صلب الموضوع ، ولكن القارئ سيغير رأيه الى حد كبير ، اذا تيقن أن المذهب الإباضي لم يدرس بعد دراسة موضوعية بسبب التيارات السياسية المتناقضة مع أصوله العامة ، أضف الى ذلك أن الدراسة المنهجية تستلزم بالضرورة هذا المدخل لندرك صلب المشكل .

وعلى أية حال فإننا نقول : إن الحركة الإباضية التي ظهرت في حضرموت واليمن والحجاز كانت نتيجة حتمية لمظاهر الحيف السائد في الدولة الأموية ، لاسيما في آخر حياتها .

ومن المستحسن هنا ، أن نعمق ونوضح الفكرة أكثر وذلك بإلقاء نظرة خاطفة على الدولة الأموية ، وبدون هذا ، لانستطيع أن نربط الحادثة التاريخية ربطا سليما بحيث لانتمكن من إعطاء صورة دقيقة وموضوعية عن دراستنا هذه .

1 - لمحة تاريخية عن الدولة الأموية :

إن الدولة الأموية قد أسسها معاوية بن أبي سفيان وذلك سنة 41 هـ ، لما تمكن من القضاء على منافسيه ، ولقد سقطت هذه الدولة

الأموية ، بموت مروان بن محمد الذي قتله الجنود العباسيون في ذي الحجة 132 هـ ، في قرية بوضير المصرية . وهذه الدولة الأموية عرفت هذه المراحل التالية :

أ - مرحلة النشوء والاستقرار في هذه المرحلة تم القضاء على الثورات المناهضة للسلطة الأموية لاسيما الخوارج والشيعة .

ب - مرحلة الفتوحات العظيمة التي ظهرت في شمال افريقيا وأوروبا والسند والصين وينتهي هذا الدور بوفاة هشام بن عبد الملك تميزت الدولة بالعظمة ورفع لواء الإسلام في تلك البقاع مع التعريب الشامل لدواوين الدولة ، مع إظهار أبهة الملك في المباني والأنظمة والثقافة .

ج - مرحلة الضعف والانحلال ، وذلك بظهور بعض الملوك الضعاف لاسيما الوليد بن يزيد بن عبد الملك الا أن الدولة الأموية قد عرفت بعض الملوك الملتزمين بالشرعية الإسلامية سلوكا صالحا ، لاسيما الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز .

والجدير بالملاحظة أن الدولة الأموية قد جعلت الحكم وراثيا وهذا يتنافى مع الرؤية الإسلامية في الخلافة التي تجعل الحكم قائما على الأهلية والشورى بين أبناء المسلمين كافة ، لأنهم سواسية أمام عدالة الله . أضف الى هذا أن الدولة الأموية ، قد ميزت بين العرب والموالي تمييزا طبقيًا بحيث أن العرب كانوا أهل حكم وحرب وتجارة ، أما الموالي فقد أبعدوا عن تلك المناصب العليا .

ومما زاد الطين بلة اذكاء روح العصبية بين العرب أنفسهم حيث ظهرت صراعات سياسية بين القبائل اليمنية والمضرية ، كل عنصر يريد أن يستحوذ على مناصب الدولة ، وكانت الأسرة الحاكمة وراء هذه اللعبة النارية التي أحرقت استقرارها .

فالإسلام يحارب بكل شدة هذه النغرة الطائفية وهو يدعو الى الأخلاق القرآنية ، لاسيما الأخوة ، الوحدة ، العدالة ، المساواة .

وفي هذا المسار التاريخي ، لابد من الإشارة الى انغماس بعض الملوك في لذة الجنس والغلمان والخمر ، ولعل من المفيد أن نورد ما قاله الوليد بن يزيد بن عبد الملك في مدح الخمر :

امدح الكأس ومن أعملها واهج قوما قتلونا بالعطش
إنما الكأس ربيع باكر فاذا لم نذقها لم نعش (32)
ويقول كذلك :

إنني أشتهي السماع وشرب الكأس والعص للخدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفارح يسعى عليّ بالأقداح (33)
ومما لاجدال فيه أن هذه الآفات الاجتماعية كانت إرهابات لظهور
ثورات إسلامية خالصة ضد ملوك الدولة الأموية الذين عدلوا عن المنهج
الإسلامي الأصيل .

وهكذا نجد ثورة طالب الحق وقائدها أبا حمزة المختار الشاري
جاءت رد فعل للحالة الاجتماعية الفاسدة التي كانت سائدة في المجتمع
الأموي .

وإن ظهور هذه الحركة الثورية كانت مرتبطة بالتاريخ الإسلامي
الذي أوجدته الأحداث التاريخية بزعامة الإمام عبد الله بن يحيى طالب
الحق الذي ثار على الدولة الأموية وذلك سنة 129 هـ ، في حضرموت

(32) ابن عبد ربه أبو عمر أحمد ، العقد الفريد ، ج : 4 ، ص : 459 .

(33) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 7 ، ص : 23 .

واليمن ، ولا ينبغي أن ننظر الى هذه الشخصية التاريخية على أنها حادثة جزئية مستقلة عن المجتمع لأن هذا يتنافى مع الحقيقة التاريخية يقول محمد اسماعيل في هذا المنظور : (وليس البطل الا الفرصة الاجتماعية المواتية ، لأنه وليد الظروف الاجتماعية والزمان التاريخي ليس قاصرا على الأبطال ، فسجل الإنسانية حافل بالأحداث التاريخية الجمعية - بمعنى أن الزمان الجمعي لا يتحقق وجوده إلا في حياة المجتمعات)⁽³⁴⁾ وهكذا نجد أن هناك علاقة تتفاعل بين ذلك البطل ومجتمعه وبدون هذا الفهم الموضوعي سنقع لامحالة في تفسيرات ذاتية بعيدة عن الروح العلمية .

واستنادا الى هذا التحليل ، يجدر بنا الآن أن نستعرض الحركة الاباضية في مكة والمدينة التي هي صلب الموضوع في بحثنا هذا ، وهذه المقدمة تعد ضرورية في الأبحاث الاجتماعية والتاريخية ، بحيث تجعلنا نتمكن من ضبط الفكرة في إطارها الموضوعي الشامل .

2 - التاريخ السياسي لأهل الدعوة :

إن دراسة التاريخ الإباضي السياسي لا يزال يكتنفه الغموض نظرا الى طبيعة هذا النظام الذي يتطلب الحيلة والسرية إضافة الى عدم وجود المصادر الكافية فيه .

ولكن بالرغم من هذا ، فإن المصادر الإباضية تشير الى أن جابر بن زيد هو الذي وضع اللبنة الأولى للحركة السياسية الإباضية السرية نظرا

(34) قباري محمد اسماعيل : قضايا علم الاجتماع المعاصر ص : 123 .

الى ملاحقة الأمويين للإباضية خاصة الأوائل منهم بهدف وأدهم في مهدهم ، وهكذا نجد أن أبا بلال مرداس بن أدية التميمي وأصحابه رحمهم الله قد قتلهم عباد بن علقمة المازني وذلك سنة 61 هـ .

يقول الدرجيني : (فأسرع عباد ومن معه وأبو بلال وأصحابه بين راع وساجد وقائم في الصلاة وقاعد ، حتى مال عليهم عباد ومن معه فقتلوهم جميعا)(35) .

أ - الإمام جابر بن زيد :

إن المصادر الإباضية القديمة تشير الى أن جابر بن زيد كانت له علاقة ودية قوية مع أبي بلال مرداس بن أدية التميمي زعيم القعدة بالبصرة ، وكانا يخرجان معا من البصرة الى مكة ويأخذان العمل عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما)(36) .

وعلى أية حال فإن جابر بن زيد يعد من الأوائل الذين أسسوا الحركة السياسية الإباضية سرا ، وخير دليل على ذلك ما جاء في كتاب السير للشماخي : (قال أبو سفيان بلغنا أن الرجل يرى عليه أثر الخشوع فيقال إن هذا الرجل قريب العهد بمجلس أبي سفيان ، قال أبو سفيان كان أبو سفيان قنبر ، شيخا كبيرا أخذ وجلد أربعمئة سوط على أن يدل على أحد من المسلمين فلم يفعل . قال جابر بن زيد وكنت قريبا منه ، وما كنت أنتظر الا أن يقول هذا . فعصمه الله . وكان من خيار المسلمين

(35) الدرجيني ، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب ، ج : 2 ، ص : 222 .

(36) المصدر السابق : ص : 88 .

وكان يجتمع المسلمون عنده فيأخذ في الذكر والدعاء الى الخير ويحض عليه(37) .

وبعد وفاة جابر بن زيد سنة 93 هـ ، عرف التنظيم السياسي الإباضي منعظا جوهريا هاما ، تمثل في شخصية أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، فكيف كان ذلك ؟

ب - أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة :

إن أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة يعد من أتباع الإمام جابر بن زيد والذي تميز بجهاده المستميت في تنظيم الحركة السياسية الإباضية تنظيما دقيقا في البصرة والعالم الإسلامي .
لقد لقي كل الأذى والعذاب الجهنمي من السلطة السياسية آنذاك الأموية والعباسية بسبب جهاده الإسلامي ضد السلطة .

وفي هذا المسار التاريخي يقول الدرجيني : (وقال بلغنا عن ضام حين سجنه الحجاج هو وأبو عبيدة قال أدخلنا في سجن قال فلم يكن يوصل إلينا ، ولا يدخل علينا حديدة ولا جلم ، وإنما كنا نقص شواربنا بأسناننا وإن كان الرجل منا لينفض لحيته فيتساقط منها القمل . وإنما كان يطعمنا خبز الشعير والملح الجرش قال ويعمد الى مراكن(38) العظام فيسكب فيها الماء ثم يؤتى بملح فيلقى في تلك المراكن ثم يضرب حتى تخرج رغوته ثم يقال : يا أهل السجن خذوا ماءكم ، قال فمن أخذ من أوله كان أمثل قليلا ، وأما ما أخذ من أسفله فهو العذاب

(37) الشماخي : كتاب السير ، ج : 1 ، ص : 86 .

(38) المراكن ج : مركن ، هو وعاء يغسل فيه الثياب .

قال فكان ضام ربما ضاق فيقول له أبو عبيدة ويلك ما هناك على من تطبيق وعلى من تدل ؟ قال فلم يخرجوا من سجنه حتى مات الفاسق(39) .

إن هذا النص يصور لنا المناخ السياسي العام الذي كان يعيشه أحرار الفكر الإسلامي .

وهكذا نجد في النص مرارة العذاب الأليم الذي ذاقه أبو عبيدة جسدا ونفسا ، كل هذا الجهاد قد تحمله من أجل نصرته العقيدة الإسلامية التي يريد أبو عبيدة أن تكون سلوكا عند طلابه حيث رباهم بالتربية القرآنية التي ظهرت في الرجال الذين أخذوا العمل عنه ، فكانوا مصايح الحق في الجزيرة العربية وشمال إفريقيا .

فليس عجيبا ، اذا وجدنا أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة كان يتمتع بذكاء حاد ودهاء سياسي وإرادة قوية لاتعرف المستحيل لتحقيق المجتمع الإسلامي العادل .

وعلى ضوء ما قلناه ، في شخصية أبي عبيدة يمكننا الآن أن نشير الى دعاة الإباضية الذين تخرجوا من مدرسته الفكرية ، والذين اتخذوا سربا - أي المسلك الخفي تحت الأرض - مدرسة .

يقول أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر (وكان الشيخ أبو عبيدة رضي الله عنه ، مستخفيا متخوفا من بعض أمراء البصرة ، فأدخلهم سربا وجعل فيه سلسلة ، فصار القفاف يباب السرب ، فمتى رأى شخصا مقبلا حرك السلسلة فيسكتون ، فإذا انصرف فيأخذون في عزمهم)(40) .

(39) الدرجيني : طبقات ج : 2 ، ص : 247 .

(40) كتاب السيرة وأخبار الأئمة ، تحقيق عبد الرحمن أيوب ص : 89 .

وهكذا فإن أبا عبيدة رحمه الله اتخذ كل حذر وحيلة مخافة أن يصل الأمر الى السلطة الحاكمة لأن الدعوة الإباضية لاتزال تمر بمرحلة الكتمان ، فاعتمد على الأماكن البعيدة حتى لاتكشف السلطة الحاكمة أمره ودعائه . ومن هنا يمكننا أن نشير الى دعاة الإباضية في العالم الإسلامي مشرقه ومغربيه .

3 - دعاة أهل الدعوة في شمال إفريقيا والجزيرة العربية :

أما بالنسبة الى شمال افريقيا فإن أول داعية هو سلمة بن سعد الذي كان يدعو الى المذهب الإباضي في القيروان .

يقول أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر (قال : سمعت سلمة بن سعد يقول : وددت أن يظهر هذا الأمر ، يعني مذهب الإباضية بالمغرب يوما واحدا من غدوة الى الليل فما أبالي ضربة عنقي) (41) .

وفي سنة 135 هـ ، خرجت أول بعثة علمية مغربية الى البصرة حيث اتصلت بأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وهؤلاء هم : عبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتي ، واسماعيل بن درار الغدامسي ، وأبو داود القبلي النقراوي .

وبعد خمس سنوات رجعوا الى المغرب العربي فانضم اليهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليميني (42) .

إلا أن دعاة الإباضية في اليمن وحضرموت كانوا من السابقين بالنسبة

(41) كتاب السيرة وأخبار الأئمة : ص : 42 .

(42) كتاب السيرة وأخبار الأئمة : ص : 57 .

لدعاة الإباضية في شمال إفريقيا ، ومن أشهرهم تلاميذ أبي عبيدة وائل بن أيوب الحضرمي ، وعبد الله بن يحيى الكندي المشهور بطالب الحق . أما في عمان فنجد من بين تلاميذ جابر بن زيد و أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة : الربيع بن حبيب أبو عمرو الفراهيدي الأزدي العماني ، والإمام بشير بن المنذر النزواني ومنير بن النير الجعلاني ، وموسى بن أبي جابر الأزكوي ، ومحبوب بن الرحيل ، ومحمد بن المعلى الكندي (43) .

وفي هذا المسار العملي نجد هؤلاء الأعلام كانوا دعائم الحق والهدى في نشر العدالة الاجتماعية الاسلامية التي نشروها بالحكمة والموعظة الحسنة . إلا أن هذه الدعوة الاسلامية الخالصة قد وجدت حينئذ كل حواجز السلطة لتحطيمها فكريا وماديا في مهدها ، إلا أن إيمان هؤلاء كان أقوى وأشد من هذه السلطة الطاغية .

وفي ضوء هذا ، سنحدث عن ثورة طالب الحق الذي ثار ضد الجور الأموى الذي ساد المجتمع المسلم آنذاك .

4 - ثورة طالب الحق ورأئدها الأول أبو حمزة المختار الشاري :

لقد تحدثنا فيما سبق ، أن هناك أسبابا مباشرة قد أدت الى زعزعة أركان الدولة الأموية لاسيما في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد الذي سقطت فيه الدولة الأموية سنة 132 هـ .

(42) كتاب السيرة وأخبار الأئمة : ص : 57 .

(43) الشيخ اطفيش الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان ص : 109 . سالم بن حمود ، إزالة الوغثاء عن أتباع أبي الشعثاء ، ص : 47/40 .

إن من أهم هذه الأسباب ، الفساد الخلقي والاستهتار بمقدسات الأمة الإسلامية . لقد جاء في كتاب الإغاني : (دعا الوليد بن يزيد ذات ليلة بمصحف ، فلما فتحه وافق ورقة فيها ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾ (ابراهيم : 16) ، فقال : أسجعا سجعا علقوه ، ثم أخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه ، ثم قال :

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا لقيت ربك يوم حشر فقل لله مزقني الوليد⁽⁴⁴⁾
وهكذا فإن طالب الحق قد ثار على جبروت السلطة الأموية سنة 129 هـ ، بحضرموت تمهيدا أوليا للثورة في الوطن الإسلامي كله .
وعلى أية حال ، فإن أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة قد بعث دعائه الى حضرموت واليمن وعمان وشمال العراق وإفريقيا لإثارة الرأي العام على السلطة المركزية الأموية في الشام⁽⁴⁵⁾ .

وكان أبو عبيدة ذا حنكة سياسية عظيمة لما ركز دعوته السياسية في مناطق بعيدة عن السلطة المركزية ، حتى لا تضرب في مهدها ، ثم اعتمد على دعاة أهل البلد أنفسهم في أغلب الحالات ، لأن هؤلاء يعرفون جيدا طبيعة مجتمعاتهم ، جغرافيا ، واجتماعيا ونفسيا كأبي أيوب وائل بن أيوب الحضرمي الذي هباً الأرضية لقيام ثورة طالب الحق ، إن هذه

(44) المصدر السابق ج : 7 ، ص : 49 الأغاني .

(45) انظر الشماخي ، كتاب السير ، ص : 97 .

الخطبة المباركة ، قد أثمرت نتائجها المتجلية في نشأة دول إباضية في
عُمان وشمال إفريقيا .

أ - طالب الحق نسبه وجهاده وأخلاقه :

نسبه : هو أبو يحيى عبد الله بن يحيى بن عمر بن الأسود بن عبد
الله بن الحارث الكندي . وهو ينتمي الى القبيلة الكندية الحضرمية التي
وجد فيها السند العظيم لثورته (46) .

أخلاقه : لقد كان رحمه الله من الرجال الذين تجلت فيهم الأخلاق
القرآنية عمليا وهو لا يؤمن الا بالمنهج القرآني الالهي الذي تسقط إزاءه
كل المناهج البشرية .

وإن كنية طالب الحق ، التي كني بها عبد الله بن يحيى الكندي
لهي دليل قاطع على تمسكه بالحق الذي أظهره لما كان قاضيا لإبراهيم
ابن جبلة عامل القوسيم على حضرموت في عصر مروان بن محمد (47) .

ولا بأس أن نستشهد بما قاله فيه الدرجيني (ومنهم طالب الحق عبد
الله بن يحيى وأصحابه الشراة كأبي حمزة ومن معه من أولئك الشراة
رحمهم الله : أما يحيى الإمام ، الداعي الى نصره دعوة الإسلام ، كان
أسدا في نجدة وشجاعة في دين الله) (48) .

ب - انتصار ثورة طالب الحق في حضرموت :

إن ثورة طالب الحق في حضرموت قد وجدت مساندة من قبيلته

(46) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، ج : 23 ، ص : 111 .

(47) الشماخي : كتاب السير : ص : 91 .

(48) الدرجيني ، طبقات ، ص : 27 ، ص : 259 .

كسدة التي أرادت أن تجعل حدا ، للفساد الخلقي الذي طغى على المجتمع الحضرمي ، وهكذا فإن المناخ الاجتماعي العام ، كان معاديا للسلطة الأموية الجائرة .

وغني عن البيان أن أبا عبيدة كانت له نظرة ثاقبة ، عن الأوضاع المأساوية التي كان يعانيها المجتمع الحضرمي واليمني ، لاسيما بعد أن بعث اليه تلميذه طالب الحق كتابا مبينا فيه فساد الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتذمر الأمة الإسلامية على هذه الآفات الأخلاقية التي سقطت في حضيض شهوات الجنس والمال من هذا المنطلق ، فإن أبا عبيدة طلب من طالب الحق أن يعجل بثورته لأن الفرصة سانحة لتغيير هذا النظام الفاسد .

واعتمادا على هذه المعطيات ، فإن أبا عبيدة بعث اليه من البصرة مساعدات مالية وعسكرية . وأوفد كذلك بعض الرجال العسكريين كأبي حمزة الشاري وبلج بن عقبة وغيرهم .

لقد جاء في كتاب الأغاني (إن عبد الله بن يحيى الكندي أحد بني عمرو بن معاوية كان من حضرموت وكان مجتهدا عابدا .

فرأى باليمن جورا ظاهرا وعسفا شديدا وسيرة في الناس قبيحة ، فقال لأصحابه ما يحل لنا المقام على ما نرى ، ولا يسعنا الصبر عليه ، وكتب الى عبيدة بن مسلم بن أبي كريمة الذي يقال له كودين مولى بني تميم ، وكان ينزل في الأزد ، وإلى غيره من الإباضية بالبصرة ، يشاورهم في الخروج فكتبوا اليه : إن استطعت ألا تقيم يوما واحدا فافعل فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل ولست تدري متى يأتي عليك أجلك ، ولله خيرة من عباده يبعثهم اذا شاء لنصرة دينيه ويختص بالشهادة منهم من يشاء .

وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي أحد بني سلمة وبلغ ابن عقبة في رجال من الإباضية ، فقدّموا عليه من حضرموت فحثوه على الخروج ، وأتوه بكتب أصحابه :إذا خرجتهم فلا تغلوا ولا تغدروا . واقتدوا بسلفكم الصالحين ، وسيروا سيرتهم ، فقد علمتم أن الذي أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم ، فدعا أصحابه فبايعوه وقصدوا دار الإمامة وعلى حضرموت إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي ، فأخذوه فحبسوه يوما ثم أطلقوه فأتى صنعاء(49) .

ومن هذا المنطلق التاريخي ، ندرك أن إباضية حضرموت والبصرة ، قد بايعوا طالب الحق إماما لهم ، لما رأوا فيه صفات المسلم الملتزم بالمنهج القرآني سلوكا .

وفعلا فإن الإباضية قد أطاحوا بالنظام الأموي ، ولم يجدوا أي مقاومة تذكر ، وذلك سنة 129 هـ .

ولقد ألقى القبض على والي حضرموت وهو إبراهيم بن جبلة الكندي الذي سجن يوما واحدا ثم أطلق سراحه حرا ، ثم التحق بوالى صنعاء وهو القاسم بن عمر الثقفي الذي كان تحت سلطة مروان بن محمد الأموي . إن القارئ الكريم قد يسأل لما ذا لم يهدر الإباضية دماء الوالي الأموي وهو إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي على حضرموت ؟ إن هدف الإباضية لم يكن في يوم ما هو هدر دماء المسلمين أيا كان ، ولكن كان هدفهم الأول دائما هو تغيير نظام الحكم الجائر ، وتطبيق

(49) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، ج : 23 ، ص : 111/112 ، تاريخ خليفة الخياط ، ص : 384 .

معالم الشريعة الاسلامية ، يقول الرسول ﷺ : «لاتغلو ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا شيخا كبيرا» رواه أبو داود والطبراني .

أما أبو عبيدة فيقول رحمه الله : (إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا واقتدوا بسلفكم الصالحين وسيروا سيرتهم) (50) .

وتؤكد النصوص التاريخية أن الجور الأموي قد طغى على المجتمع المسلم وبلغ مداه ، مما زاد في تقويض أركان الدولة الأموية ، والتف المسلمون حول ثورة طالب الحق ، الذي قرر الذهاب الى صنعاء وطرد الوالي الأموي القاسم بن عمر الثقفي منها ، فكيف حدث هذا ؟

ج - انتصار ثورة طالب الحق في اليمن :

لقد تمكن الإباضية من تقويض الدولة الأموية في حضرموت ، وتم تعيين عبد الله بن سعيد الحضرمي واليا عليها .

ومن هنا سار طالب الحق الى اليمن وكتب الى إباضية اليمن بقوله :
إني قادم عليكم وهذا سنة 129 هـ .

ومن المؤكد أن دعاة الإباضية وأنصارهم كانوا موجودين في اليمن ، منذ زمن ثورة الشراة التي قام بها أبو بلال مرداس بن أدية التميمي بالبصرة سنة 61 هـ .

يقول المؤرخ الإباضي لوأب بن سلام بن عمر اللواتي المتوفى سنة 175 هـ ، ما يلي : (ثم خرج على الجبابة بعد أبي بلال رجل يقال له

(50) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، ج 23 ، ص : 113 .

عباد الجحافي باليمن شاريا بمن اتبعه على منهاج أبي بلال رحمه الله ،
فقاتل حتى قتل لم يدع للإمامة على أحد من المسلمين ممن لم يخرج
معه وكانوا على أمر واحد . يتولى المقيم الخارج والخارج .

ثم اجتمع المسلمون أهل الشورى باليمن وأنسوا من أنفسهم قوة فولوا
عبد الله بن يحيى الكندي من أهل حضرموت باليمن فخرج على الجبابرة
بنى أمية المروانية فقاتلهم حتى ظهر على اليمن وأخذ صنعاء (51) .

وعلى أية حال فإن طالب الحق قد سار بجيش الى اليمن ، وكان
عدد عساكره ألفين ولما علم بذلك والي اليمن القاسم بن عمر الثقفي جهز
جيشا بثلانين ألف رجل ، وهذا الجيش الأموي تميز بعدته العسكرية
الكبيرة ، وخبرته الميدانية التي اكتسبها من حروبه السابقة الا أن طالب
الحق تمكن من هزيمة هذا الجيش خارج صنعاء ، ثم تراجع هذا الجيش
الأموي الى صنعاء ولحق به طالب الحق في عقر داره وهزمه شر هزيمة
فدخل عد الله بن يحيى صنعاء وهكذا نجد الثقفي وأنصاره قد هربوا الى
بلاد الشام .

أيها القارئ الكريم لعلك تسأل لماذا انتصر الإباضية في هذه المعركة
بالرغم من قلة عددهم نستطيع أن نوجز الإجابة في هذه العناصر التالية :
أ - صلابة عقيدة الجيش الإباضي التي دفعته الى الاستشهاد في سبيل
الحق أو النصر .

ب - رغبته المستميتة في سبيل شرح معالم الدين الصحيح وغرسها
في المجتمع الإسلامي ثم محاربته للظلم والطاغوت والانحلال الخلقي .

(51) تاريخ خليفة الخياط ، ص : 384 .

إن هذا الفساد الخلقي قد خلق روح التدمير والانتقام من السلطة الأموية ، وتأسيسا على هذه الحقائق التاريخية ، فإن الجيش الإباضي استطاع أن يتغلب على الجيش الأموي بالرغم من قوته البشرية وآلاته العسكرية .

وفوق كل ذلك فإن المصادر البشرية القديمة قد أشارت الى أن طالب الحق وجنوده لم يؤذوا أي مسلم في ماله أو نفسه أو عرضه . (قالوا : وأقام عبد الله بن يحيى بصنعاء شهرا يحسن السيرة فيهم ويلين جانبه لهم ، ويكف عن الناس ، وأتته الشراة من كل جانب) (54) .

من هذه الحقيقة يمكننا أن نقف على عقيدته الإسلامية من خلال خطبته التي ألقاها في صنعاء بين فيها أن المسلمين سواسية قد جمعهم ثوابت ، فلا مجال للاختلاف فيما بينهم . يقول رحمه الله : (إنا ندعوكم الى كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجابة من دعا اليهما ، الاسلام ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلال حلالا ، لانبغي به بدلا ، ولا نشترى به ثمنا قليلا ، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، والى الله المشتكى وعليه المعول) (55) .

د - القائد أبو حمزة المختار الشاري يدخل مكة والمدينة :

لقد تحدثنا فيما مضى عن دور أبي حمزة الشاري في إنجاح ثورة

(54) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 23 ، ص : 115 .

(55) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 23 ، ص : 114 .

طالب الحق في حزموت واليمن ، ولا بد أن نشير إشارة خاطفة الى شخصية هذا القائد الذي ترك بصمات في التاريخ الإسلامي .

1 - أبو حمزة المختار الشاري حياته وجهاده :

ارتبط اسم حياة حمزة الشاري تاريخيا بالثورة التي قام بها عبد الله بن يحيى طالب الحق ضد الدولة الأموية وذلك سنة 129 هـ ، في حزموت واليمن .

أما بالنسبة الى نسبه فقد أورده كتاب الأنساب للعتوبي الصحاري : أبو حمزة المختار بن عبده الله بن يحيى بن مازن بن مخاشن ابن سعد بن صامت بن مخاشن ابن سليمة بن مالك بن فهم الأزدي (56) . وإذا جئنا الى طفولته فإن المصادر لا تذكر حياته بالتفصيل ، وقيل إنه كان يسكن في قرية مجز القريبة من جنوب مدينة صُحار العمانية ، ثم إن المصادر القديمة تشير الى أنه قضى حياة شبابه في البصرة التي كانت المركز الأول والحيوي للحركة الإباضية في نشأتها وتطورها .

ومن الإنصاف أن نعترف أن العمانيين قد ساهموا مساهمة فعالة في إثراء الفكر الإسلامي وتاريخه العظيم من خلال شخصيات برزت في البصرة كالقاضي كعب ابن مسور والفقيه العظيم أبي الشعثاء جابر بن زيد والأديب الكبير الخليل بن أحمد الفراهيدي والقائد المهلب بن أبي صفرة إن هؤلاء الأفاضل يحق للأمة الإسلامية أن تخلد مآثرهم (57) .

(56) نقلا عن كتاب السير للشماخي تحقيق السيابي ، ص : 91 . وانظر : مهدي طالب هاشم ، الحركة الإباضية في المشرق العربي .

(57) انظر : أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ج : 23 ص : 112 . وانظر : مهدي طالب هاشم : الحركة الإباضية في المشرق العربي ص : 95/45 .

ويقول المؤرخون : إن البصرة في القرن الأول الهجري والثاني كانت
عمانية المسكن ، وإباضية الفكر ، لقد صدق المثل السائر الذي شبه العلم
بالطائر فقال : (باض بالمدينة ، وفرخ بالبصرة ، وطار الى عمان) (58) .

وفي ضوء هذه الحقيقة التاريخية نجد أن أبا حمزة قد قضى شطر
حياته في رحاب مدرسة الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة والذي
تخرج منها هو وطالب الحق .

وبعد إلقاء بعض الأضواء على هذا البطل ، أبي حمزة المختار
الشاري ، نقول : إن طالب الحق قد أرسله الى الأراضي المقدسة وساعده
بلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح الحميري على رأس جيش إباضي ليطهروا
مكة المكرمة والمدينة المنورة من السلطة الأموية سنة 129 هـ (59) .

وكان الجيش الإباضي عدده في تسعمائة رجل وقيل : في ألف ومائة .
والجدير بالذكر أن مكة المكرمة قد عرفت حركة سياسية إباضية
بزعامة أبي الحر علي بن حصين فقد جاء في كتاب السير ما يلي :
(وأقام أبو حمزة بمكة أربعين يوما ، فلما التأم اليه أصحابه ودخلوا مكة
يحكمون ، قال أبو الحر علي بن الحصين هذا صوت غريب في أرض
الحرم وخطب بمكة وأقام بها ما شاء الله أن يقيم وهو يكاتب أبا يحيى
وكان أبو الحر علي بن الحصين العنبري من علماء المسلمين وفقهائهم
أقام بمكة) (60) .

(58) الشيخ السالمي ، تحفة الأعيان ، ج : 1 ، ص : 71 .

(59) المسعودي : مروج الذهب ، ج : 3 ، ص : 242 . أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني :

ج : 23 ، ص : 115 .

(60) الشماخي : كتاب السير : 1 ، ص : 92 .

ولقد كان الوالي الأموي على الحجاز ، وهو عبد الواحد بن سليمان ابن عبد الملك الذي فوجئ بدخول الإباضية في موسم الحج وذلك سنة 125 هـ .

إلا أن عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك لم يستطع أن يقاوم الجيش الإباضي ، فلجأ الى المفاوضات بينه وبين الإباضية على أنهم لا يهاجمون الحجيج ، وتؤمن حياته ويترك سبيله بعد موسم الحج . وفي ضوء هذا فإن الواحد بن سليمان بن عبد الملك قد خاف أن ينقض أبو حمزة المختار الشاري العهد الذي وقع بينهما وهو عدم الاعتداء على حياة الحجيج ونفسه .

ولا بأس أن نستشهد بما ورد في ذلك : (فلما ذكر ربيعة نقض العهود قال بلج وإبراهيم وكانا قائدين له : الساعة الساعة فأقبل أبو حمزة عليهما وقال : معاذ الله أن ننقض العهد أو نخيس به ، والله لا أفعل ، ولو قطعت رقبتى هذه ولكن تنقضي هذه الهدنة بيننا وبينكم ، فلما أبى عليهم خرجوا فأبلغوا عبد الواحد ، فلما كان النفر الأول نفر عبد الواحد ، وخلي مكة لأبي حمزة ، فدخلها بغير قتال) (61) .
وفعلا فقد دخل أبو حمزة الشاري وجيشه مكة وذلك سنة 129 هـ (62) .

والجدير بالذكر أن أحد الشعراء قد هجا الوالي الأموي عبد الواحد فقال فيه :

(61) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني : ج : 23 ، ص : 118 .

(62) المسعودي : مروج الذهب ، ج : 3 ، ص : 242 .

زار الحجيج عصابة قد خالفوا دين الاله ففر الواحد ترك الإمارة والحلائل هاربا ومضى يخبط كالبعير الشارد(63) . وبعد هذا الفتح ، سار أبو حمزة الشاري الى الطائف ففتحها ، دون أن يجد أي مقاومة تذكر .

ولما علم الملك الأموي مروان بن محمد أن مكة قد سقطت في قبضة الإباضية ، ثارت ثائثرته فعزل عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك عن منصب ولاية الحجاز ، وعين مكانه واليا جديدا وهو عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز الذي عَزَزَ بالرجال والآلات الحربية ثم عين والي عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، قائدا عاما للجيش الذي وجهه لضرب الإباضية(64) .

وإن هذا الجيش الأموي كان يضم أهل المدينة وتجار قريش ، بحيث أن عددا عساكره كان ثمانية آلاف فالتقى الجيشان الأموي والإباضي في قرية قديد الواقعة بين مكة والمدينة ، وفي هذه المعركة انتصر الإباضية على الأمويين ، بالرغم من أن الجيش الإباضي لايزيد عدد عساكره على ألف رجل ، وبعد هذه المعركة ، دخل الإباضية المدينة المنورة سنة 130 هـ .

ولما دخل أبو حمزة الشاري المدينة ، بين لأهلها أن الهدف الأول والأخير من حركته هو تطهير المجتمع الإسلامي من الفساد الخلقي ، وذلك بإرجاعه مرة أخرى الى المنهج القرآني الذي ابتعد عنه المسلمون

(63) الأغاني : ج : 23 ، ص : 119 .

(64) الأغاني : ج : 23 ، ص : 130 .

وانحرفوا عن سيرة الرسول الكريم ، ولناخذ هذه الفقرة التالية من خطابه حتى نطعم قولنا : (قال مالك بن أنس - رحمه الله - خطبنا أبو حمزة خطبة شكك فيها المستبصر وردت المرتاب : قال : أوصيكم بتقوى الله وطاعته ، والعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ ، وصلة الرحم ، وتعظيم ما صغرت الجبارة من حق الله ، وتصغيرها ما عظمت من الباطل ، وإماتة ما أحيوا من الجور ، وإحياء ما أماتوا من الحقوق وأن يطاع الله ويعصى العباد في طاعته ، فالطاعة لله ، ولإطاعة لمخلوق في معصية الخالق . ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والقسم بالسوية ، والعدل في الرعية) (66) .

ولما علم الخليفة الأموي مروان بن محمد بمعركة قديد التي انتصر فيها الإباضية ، ثم دخولهم المدينة جعلته يحسب للانتصارات الإباضية ألف حساب ، مخافة أن تمتد يد الإباضية القوية فتقوض أركان الحكم الأموي نهائيا .

ومن خلال هذه الواقعة التاريخية أرسل مروان بن محمد جيشا شاميا ، كان عدده أربعة آلاف رجل ثم جهزه بأحسن عدة رجالا وآلات وأموالا وهدايا ، فقد عين على رأس هذا الجيش قائدا جديدا وهو عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي القيسي ، وذلك سنة 130 هـ (67) ، وحين علم أبو حمزة الشاري بهذا الخبر ، أرسل قائده المشهور بلج بن

(66) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 4 ، ص : 145 .

(67) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني : ج : 23 ، ص : 140 ، المسعودي : مروج الذهب ، ج : 3 ، ص : 242 .

عقبة الأزدي في جيش لا يزيد عدده على ستمائة رجل لقتال الجيش الأموي ، وتم اللقاء بين الجيشين في وادي القرى ، فهزم الجيش الإباضي وقتل قائده بلج بن عقبة الأزدي ، ويعد هذا أول انهزام للإباضية في ساحة القتال .

2 - استشهاد أبي حمزة المختار الشاري في ساحة الشرف :

لما علم أبو حمزة الشاري بهذا الانهزام قرر الانسحاب الى مكة .
ومما تجدر الملاحظة هنا ، أن أهل المدينة يكنون العداوة لجيش
أبي حمزة الشاري الذي قتل أعز شبابهم في معركة قديد . وقالت نائحة
من أهل مكة تبكيهم :

ما للزمان وماليه فنت قديد رجاليه
فلأبكين سريرة ولأبكين علانيه
ولأبكين اذ خلـو ت مع الكلاب العاويه
إن الانتصار الذي حققه الجيش الأموي في وادي القرى جعلته يحتل
المدينة ، ويقتل إباضيتها وعلى رأسهم بلج بن عقبة والمفضل ،
ومجموعة كبيرة من الإباضية الذين سيطروا على المدينة حوالي ثلاثة
أشهر إلا ان القائد الاباضي أبا حمزة الشاري تمكن من الانسحاب ليلا من
المدينة الى مكة على أساس أن يستعين بأنصاره بيد أن الأمويين استغلوا
الظروف بفتح معركة ضاربة ضد الإباضية في أسفل مكة فقتل أبو حمزة
الشاري سنة 130 هـ ، مع امرأته وهي تقول :

من سأل عن اسمي فاسمي مريم بعث بسواري سيف مخدّم (68).

(68) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ج : 23 ، ص : 144 ، مهدي طالب هاشم ، الحركة الإباضية في المشرق العربي : ص : 147.

إن هذه المعركة قد ذهب فيها الإباضية لاسيما الفقيه الكبير أبو الحر علي بن الحصين الذي أشار الى أبي حمزة الشاري سابقا أن الجبهة الداخلية المعارضة للإباضية لابد من مراقبتها وقيدها ، وإلا خسرنا المعركة في الأراضي المقدسة بسبب هذا الطابور الخامس .

ولما وقعت هذه الهزيمة بالإباضية بمكة ، خرج طالب الحق هو وأنصاره من اليمن ، لمقاتلة جيش عبد الملك بن محمد بن عطية . وهكذا خرج عبده الله بن يحيى الكندي أي طالب الحق من صنعاء فالتقى الجيشان بأرض جرش من ناحية الطائف ، فكانت بينهم حرب عظيمة ، فقتل فيها طالب الحق وكثير من الإباضية ، وكان ذلك سنة 130 هـ ، ولحق بقية الإباضية بحضرموت (69) .

ولقد رثى عمرو بن الحصين عبد الله بن يحيى وأبا حمزة وشهداء الإباضية بقصيدة طويلة تشتمل على خمسة وخمسين بيتا ، يقول فيها :

يا رب ، فاسلكني سبيلهم ذا العرش واشدد بالتقى أوزري
في فتية صبروا نفوسهم للمشرفة والقنا السمر (70) .

بالرغم من الهزيمة فإن الإباضية لم ييأسوا بحيث أنهم بايعوا إماما جديدا للدفاع وهو يحيى بن عبد الله بن عمر بن السياق الحميري ، الذي قاد الجيش الإباضي الذي بلغ عساكره ألف رجل فقط ، ودارت المعركة شديدة الوطيس بينه وبين القائد الأموي عبد الرحمن بن يزيد

(69) المسعودي : مروج الذهب ، ج : 3 ، ص : 242 .

(70) الأغاني : ج : 23 ، ص : 149 ، الأزر : القوة ، المشرفة : السيف . القنا : الرمح .

ابن عطية في منطقة عدن ، فاستشهد في هذه المعركة القائد الإباضي الذي ذكرناه (71) .

وبالرغم من هذه النكسة الثانية ، فإن الإباضية لم يضعوا السلاح ، فلم يتسرب اليأس الى قلوبهم وذلك أن الإباضية قد تشبعوا بالأخلاق القرآنية لقوله تعالى : ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون ﴾ (الحجر : 56) .

إن هذه الأخلاق القرآنية جعلتهم ينتخبون اماما جديدا وهو يحيى بن حرب الحميري الذي انهزم أمام الأمويين في ساحل حضرموت . يقول أبو الفرج الأصفهاني (وخرج عليه يحيى بن حرب الحميري بساحل البحر ، وانضمت اليه شذاذ الإباضية ، فبعث إليه أبا أمية الكندي في الوضاحية ، فالتقوا بالساحل ، فقتل من الإباضية نحو مائة رجل ، وتحاجزوا عند المساء فهربت الإباضية الى حضرموت) (72) .

وهكذا شاءت إرادة الله المطلقة ، أن يقتل يحيى بن حرب الحميري الذي كان أحد أبطال الإمام الإباضي طالب الحق والذي قتل بيد أبي أمية الذي وجهه عبد الملك بن عطية التابع لمروان بن محمد ومع هذه المسألة فإن الإباضية قد وحدوا جهودهم المطلقة للعد على الزحف الأموي فكيف ظهر هذا (73) .

5 - الإمامة الإسلامية تغيب في حضرموت وتشرق في عمان :

(71) مهدي طالب هاشم : الحركة الإباضية ص : 154 .

(72) الأغاني : ج : 23 ، ص : 155 .

(73) مهدي طالب الحق : الحركة الإباضية ص : 155 .

بعد أن هزم بنو أمية الإباضية في الساحل الحضرمي ، لجأ الإباضية
الثائرون الى شبام بحضرموت ، وذلك أن جعلوها مركزا لحرب العصابات
والتموين بحيث تنطلق منها الهجومات الإباضية على الجيش الأموي ،
ولقد أخذ زمام الإمامة عبد الله بن سعيد الحضرمي ، وجرت عدة معارك
بين الأمويين والإباضيين الذين جاهدوا بكل إخلاص وصبر في سبيل
الله ، ولم يستطع ابن عطية أن يحقق نصرا سريعا ضد الإباضية ، فعقد
معههم شبه هدنة على أساس أن يعين أحد الحضرميين الإباضيين في شؤون
الحكم الداخلي وأن يرد لهم ما أخذه من متاع .

والجدير بالذكر أن الخليفة الأموي عين قائده عبد الملك بن عطية
رئيسا 131 هـ ، لموسم الحج . إلا أن الإباضية كانوا يترصدون تحركاته ،
ونصبوا له كميناً في الطريق فقتلوه انتقاماً منه ، بسبب قتله لإخوانهم
الإباضية .

يقول أبو الفرج الأصفهاني : (فلما كان بأرض مراد تلفت عليه
جماعة فمن كان من تلك الجماعة إباضيا عرفه ، فقالوا : ما ننظر بهذا
أن ندرك ثأر إخواننا فيه ، ومن لم يكن إباضيا ظنه من الإباضية وأنه
منهزم فلما علم أنهم يريدونه قال لهم : ويحكم أنا عامل أمير المؤمنين
على الحج ، فلم يلتفتوا الى ذلك فقتلوه . ونصبت الإباضية رأسه فلما
فتشوا متاعه وجدوا فيه الكتاب بولايته على الحج (74) .

ولما وصل خبر قتل ابن عطية الى نائب الوالي بصنعاء وهو عبد
الرحمن بن يزيد ابن عطية الذي هو ابن عمه ، ثارت ثائرتة ، وذلك

(74) الأغاني : ج : 23 ، ص : 158/157 .

يارساله جيشا ، بقيادة شعيب البراقي الذي دخل حضرموت وسل السيف على وجه الإباضية فقتل منهم عددا كبيرا ، وهناك قبضوا على عبد الله ابن سعيد الحضرمي فقتلوه وذلك سنة 132 هـ .

وبوفاة هذا الشهيد عبد الله بن سعيد الحضرمي اختفت الإمامة الإباضية ظهورا ودفاعا في الحجاز(75) .

وهناك لجأ الإباضية الى مرحلة الكتمان ، بالرغم من وسائل التعذيب التي لحقت بالإباضية بحضرموت ، فإن المذهب الإباضي بقي راسخا هناك الى سنة 332 هـ .

يقول المسعودي : (ولحق بقية الخوارج ببلاد حضرموت ، فأكثرها إباضية الى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة ولا فرق بينهم وبين من بعمان من الخوارج في هذا المذهب)(76) .

6 - كيف ولماذا سقطت الدولة الإسلامية باليمن والحجاز ؟

بعد ما ألقينا نظرة عامة على سقوط الإمامة الإباضية في الحجاز واليمن وحضرموت ، يحسن بنا أن تقدم نظرة نقدية موضوعية عن ذلك . ومن هنا نقول : إن السلطة الإباضية في اليمن والحجاز وحضرموت لم تدم أكثر من ثلاث سنوات أي من سنة 129 هـ ، الى 132 هـ . أما الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي أدت الى سقوط هذه الدولة الإباضية فيها هي ذي :

(75) عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص : 126 .

(76) مروج الذهب ج : 3 ، ص : 243 .

أ - اذا عدنا الى الدولة الأموية منذ نشأتها الى خلافة مروان بن محمد ، نلاحظ أن هذه الدولة قدمت صورة مشوهة للمسلمين عن الإباضية باعتبارهم خوارج خارجين عن الإسلام وبالتالي سخرت كل أموالها للمحافظة على وجودها فاشتريت بعض ضائر الفقهاء والشعراء لخدمة سلطتها السياسية والاجتماعية ليكون الحكم ملكيا وراثيا بدلا من أن يكون جمهوريا قائما على المساواة والكفاءة والشورى .

ب - إذا قمنا بمقارنة بسيطة بين الجيش الأموي والجيش الإباضي ، نلاحظ أن المقارنة تفقد دلالتها وذلك أن الجيش الأموي كان أكثر عددا ومالا وسلاحا من الجيش الإباضي .

أما الجيش الإباضي فتميز بعقيدته الصلبة الخالصة ، الا أن هذه العقيدة يجب أن تكون مدعمة بالمال والسلاح والرجال .

ج - إن الإباضية قد وقعوا في خطأ عسكري من حيث الإشكالية الزمانية والأخلاقية ، وكان من الواجب أن يعطوا أهمية قصوى للزمان ، بحيث عجلوا بفتح مكة المكرمة والمدينة المنورة غير أن المناخ السياسي العام كان ضدهم بسبب التناقض الصارخ بين الإباضية الملتزمين عمليا بتعاليم الإسلام والمجتمع الحضاري الحجازي المنغمس في الملذات الدنيوية جنسا ومالا .

يقول الأستاذ طالب هاشم (إن الحركة الإباضية أقامت كيائها السياسي في بيئة ومحيط معاد من الناحية السياسية وخاصة أهل الحجاز الذين كانوا يسخرون من جيش أبي حمزة ويصفونهم بالأعراب الحفاة ، بسبب التناقض الواسع بين الإباضية ، ومجتمع الحجاز اللاهني آنذاك) (77)

(77) مهدي طالب هاشم : الحركة الإباضية في المشرق العربي : ص : 163 .

وما تجدر ملاحظته هنا ، أن هذه الحقيقة قد لمسها الداعي الإباضي علي بن حصين العنبري الذي بين أن القيم الأخلاقية الإسلامية لا يلتزم بها ولاية الأموية كابن عطية وأمثاله ، فحذر بذلك أبا حمزة المختار الشاري . لقد جاء في كتاب الأغاني : (أقام ابن عطية بالمدينة شهرا ، وأبو حمزة مقيم بمكة ، ثم توجه إليه ، فقال له علي بن حصين العنبري :إني قد كنت أشرت عليك يوم قديد وقبله أن تقتل هؤلاء الأسرى كلهم ، فلم تفعل ، وعرفت أنك سيغدرون ، فلم تقبل حتى قتلوا المفضل وأصحابنا المقيمين بالمدينة ،وأنا أشير عليك اليوم أن تضع السيف في هؤلاء ، فإنهم كفرة فجرة ولو قدم عليك ابن عطية لكانوا أشد عليك منه ، لأرى ذلك لأنهم قد دخلوا في الطاعة ، وأقروا بالحكم ووجب لهم حق الولاية قال : إنهم سيغدرون فقال : أبعدهم الله ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ (الفتح : 10)

وأيا كان الأمر ، فإن المناخ الاجتماعي كان ضد الإباضية في مكة والمدينة ، لأن الحجازيين يرون أن وصول الإباضية الى الحكم سيقضي لامحالة على امتيازاتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وحياة المجون والفساد الخلقي .

ولو استغل الإباضية الوقت الكافي ، وركزوا على تربية الضمير الديني وبنوا الانشطارية التي يعيشها المجتمع الحجازي بين حياة الرسول وحياتهم المترفة لاكتسبوا المعركة اجتماعيا وسياسيا .

ومن هنا تتأكد حقيقة جوهرية لايمكن طمسها أن الحساسية الدينية المفرطة عند الإباضية هي التي عجلتهم بهذه السرعة الزمانية التي دفعتهم

الى فتح جبهة الشام ، دون أن يحسبوا للمناورة السياسية والظرف
الزمني دورهما في تقويض السلطة الأموية ، لأن الحرب هي خدعة قبل
أي اعتبار ، بحيث تصير الفضيلة الأخلاقية رذيلة والرذيلة فضيلة ، هذا
بالنسبة الى الحاكم الذي لا يلزم نفسه بالأخلاق القرآنية . إلا أن المناورة
السياسية القائمة على تبرير القيم الأخلاقية الإسلامية كانت بعيدة كل
البعد في تاريخ الإباضية .

وفي ضوء هذا ، يمكننا أن نقول : إن الإيمان الراسخ في قلوب
الإباضية هو الذي جعلهم يسترخصون نفوسهم بكل عجلة في ساحة
الاستشهاد ، دون أن يلجأوا الى التأنى والمراوغات السياسية الماكرة .
ولنتأمل معا مقاله أحد دعاة الإباضية في شمال إفريقيا وهو سلمة بن
سعد بن علي بن أسد الحضرمي (وددت أن يظهر هذا الأمر يعني
- مذهب الإباضية بالمغرب يوما واحدا من غدوة الى الليل فما أبالي
ضربة عنقي) (78) .

وهكذا يتبين لنا أن العوامل التي ذكرناها هي التي أدت الى سقوط
الإمامة الإباضية في حضرموت واليمن والحجاز ، ولكن بالرغم من هذا
فإن الإباضية تمكنوا من إنشاء السلطة الحاكمة في عُمان والجزائر .
فكيف حدث هذا ؟

(78) أبو زكرياء : كتاب السيرة وأخبار الأئمة ص : 42 .

7 - ظهور الإمامة الإسلامية في عُمان :

من المعروف تاريخياً أن الإباضية قد ظهوروا في عمان وشمال إفريقيا فكونوا دولا قوية ولها الفضل الكبير في نشر الدين الإسلامي في إفريقيا الشرقية وهذا بفضل الإباضيين العمانيين أما في شمال إفريقيا فإن الإباضيين الجزائريين قد نشروا الدين الاسلامي فيه ، لاسيما في عصر الدولة الرستمية التي غرست بذور الاسلام في الغرب الافريقي شمالا وجنوبا(80) .

وغني عن البيان أن الباحث الذي ينقب ويستعرض تاريخ الإباضية القديم ، يجب عليه أن يشير الى أن النكسة التي لحقت بالإباضية سنة 132 هـ . قد جعلتهم يقصدون عُمان ويوحدون جهودهم من جديد لتكوين دولة إسلامية قائمة على المنهج القرآني .

وهكذا نجد العلامة نور الدين السالمي ، يوضح لنا أن الجلندی بن مسعود يعد أول إمام إباضي عماني يتحمل الإمامة بكل جدارة . وقد اشترك في ثورة طالب الحق ، ضد السلطة الأموية ، لأن الحوادث العامة قد جمعتهم عقائديا ، وزمانيا ومكانيا .

وفي هذا المنطلق التاريخي يحسن بنا أن نورد ما قال فيه العلامة الشيخ السالمي : (وقد تقدم أن سبب إمامته أن أبا العباس السفاح ولي أخاه أبا جعفر المنصور على العراق وولي المنصور على عُمان جناح بن عبادة بن قيس الهنائي ثم عزله وولي ولده محمد بن جناح ، فلأن المسلمين وافقهم على ما يحسبون حتى صارت ولاية عُمان لهم ، فعند

(80) بحاز ابراهيم بكير ، الدولة الرستمية .

ذلك عقدوا الإمامة للجلندي بن مسعود ، فكانت لظهور الإسلام وقوة شوكته وكان عادلا مرضيا وكان الجلندي ممن حضر بيعة عبد الله بن يحيى طالب الحق .

قال أبو الحسن البسياني : وقد أجمعوا على إمامته وولايته والمجاهدة معه(81) .

إن هذا النص الذي استعرضناه هنا، يعد ضروريا حتى نربط السلسلة التاريخية الإسلامية في عُمان والحجاز . وإلا أصبح بحثنا تنقصه النظرة الشمولية في بحثنا هذا . من هذه النظرة التاريخية يتبين لنا جليا أن ثورة طالب الحق والقائد أبا حمزة الشاري ، لهما البعد العميق والمؤثر في التاريخ الإباضي خاصة والتاريخ الإسلامي عامة .

ولا يفوتنا أن نشير هنا الى أن هذه الحركة الإباضية قد تركت لنا عيونا أدبية لاسيما خطب أبي حمزة المختار الشاري ، التي تمثل لنا صورة ناطقة عن الجهاد الإسلامي ، وإذا عالجنا هذه الزاوية نقول : إن دراستنا قد تقترب ، الى الصيغة الشمولية المتشعبة بالروح العلمية الإسلامية التي تبحث عن الحقيقة التاريخية الناصعة لتكون قدوة مثالية للشباب المؤمن برسالة القرآن الكريم ، الذي يرد الإنسان الى ربه ويرفض مظاهر الجاهلية السائدة في الأرض ، التي انحرفت عن المنهج الإلهي .

(81) السالمي : تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، ج : 1 ، ص : 72 .

الفصل الثالث

الالتزامات الأخلاقية

في أدب هذه الحركة الإسلامية المجاهدة

ليس من السهولة بمكان ما ، أن نحلل الآثار الأدبية التي تركتها هذه الحركة الإباضية من خلال أدب طالب الحق وأبي حمزة المختار الشاري وعمر بن الحصين الذي رثى شهداء وقعة قديد ، فأدب هذه الحركة قليل نسبيا ، ولكن بالرغم من هذا فإن ذلك الانتاج الأدبي يعكس لنا أهداف ومكونات هذه الثورة على الظلم والفساد السياسي والخلقي .

1 - لماذا تدرس النصوص الأدبية من الزاوية التاريخية :

لإجدال في أن دراسة أي ثورة أو أية شخصية تعتمد كل الاعتماد على النصوص الأدبية التي تركتها ، سواء كانت شعرا أو نثرا ، بحيث تتمكن من كشف وبيان طبيعة هذه الحركة من حيث اتجاهاتها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وعلى أية حال ، فإن النصوص تعد معينا فكريا لا ينضب ، إذ يستقي رجال الفلسفة والأدب والتاريخ أفكارهم منه .

ومن هذا المنطلق المنهجي ، فإن الباحث الناقد لا يمكنه أن يدرس الفكرة دراسة موضوعية مباشرة إلا من خلال مصادرها الأصلية الأولى ، بدلا من دراستها من مصادرها الثانوية بحيث تحرف كثيرا تلك الآراء .
وفضلا عن ذلك ، فإن النصوص الأدبية تجعل الباحث الناقد ،

يستشهد بها في كتابة موضوعاته الفكرية ، وبهذا يزيل كل لبس وغموض عن الأفكار التي يريد تحليلها تحليلًا موضوعيًا ، ثم إن هذه الآثار الفكرية تفرض علينا قيمًا أخلاقية ، إذا التزمنا بروح البحث العلمي النزيه ، وتدفعنا كذلك الى أعمال العقل والنقد ، لنقيم تلك الأفكار المطروحة تقييما موضوعيا ، بعيدين عن العاطفة .

هذا من الوجهة الأدبية أما من الوجهة الاجتماعية فإن النصوص في جوهرها ، تعكس لنا ثقافة الأديب وبيئته التي يعيش فيها ، وغالبا ما تطرح مشاكلها الاقتصادية ، والأخلاقية والسياسية . وإذا أقصينا هذه العناصر الحيوية ، فإن دراستنا ستكون ذاتية ، خاضعة لآراء وأفكار مسبقة ، وهذا يتنافى مع الأبحاث المنهجية الدقيقة .

وإذا عدنا الى أدب الحركة الإباضية التي درسناها من الزاوية التاريخية نلاحظ أن أدبها تميز بالطابع الالتزامي وهذا بطبيعة الحال مادامت تدافع عن العقيدة الاسلامية الأصيلة اذن فما معنى الالتزام ؟

2 - الأدب والالتزام الأخلاقي :

قبل أن نعالج أدب الالتزام عند الحركة الإباضية التي تحدثنا عنها من الوجهة التاريخية فقط ، فلا بد من أن نشير إشارة خاطفة الى مفهوم الالتزام الأخلاقي .

فالالتزام يختلف كل الاختلاف عن دلالة الإلزام الأخلاقي . لأن الالتزام هو فضيلة أخلاقية ذاتية تجعل الفرد يختار فكرة بمحض إرادته الحرة ، دون اكراه وتدفعه الى العمل والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل تحقيقها .

وهذا لن يكون الا بالإيمان الصادق والاخلاص . أما الإلزام فهو إكراه شخص ما ، على أن يعمل بفكرة ما ، دون أن يؤمن بها بمحض إرادته الحرة .

لقد جاء في المعجم الفلسفي ما يلي : (ومن شروط هذا الالتزام أن يكون له غاية اجتماعية أو خلقية ، وأن يكون مبنيا على مبدأ يقبله المرء بإرادته العاقلة .

ولذلك كان معنى الالتزام قريبا من معنى الاخلاص ، والصدق والاستقامة .

وقد انتشر لفظ الالتزام في الفلسفة الحديثة بتأثير جماعة مجلة الفكر ، ولاسيما بتأثير (مونييه) الذي ذهب الى الالتزام هو الأمانة . قال : إن الكلام الخالي من الالتزام ينقلب الى فصاحة جوفاء ، والفصاحة الأدبية لا تخلو في جوهرها من الرياء وإن كان خفيا(82) .

وما تجدر ملاحظته أن هذه الفكرة الفلسفية لاتزال محل جدال وتقاش بين المفكرين منذ القديم الى يومنا هذا ، لأن الانسان يتميز بالحرية ، فإن تلك الحرية تفقد فعاليتها مادامت غير مرتبطة بهدف إنساني نبيل . فالإنسان مهما كان يجب أن يكون له موقف واضح ، إزاء المشاكل الطروحة ، طالما يعيش في مجتمع له مشاكله وأهدافه والا أمسى يخدع نفسه ويخداع غيره لتحقيق مآربه الذاتية على حساب تضحية أفراد مجتمع تلکم هي الأنانية بعينها ، وعلى هذا نجد أن الإنسان الملتزم أخلاقيا هو الذي يضحي بكل شيء في سبيل تحقيق قيم أخلاقية

(82) الدكتور جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج : 1 ، ص : 118 .

سامية وهو يناصر الحق والخير من أجل سعادة الإنسانية كلها بالرغم من العذاب الذي يسلط عليه وهو راض كل ارضاء بهذا الجهاد الذي يراه هو الحياة ، فليس غريبا بعد هذا التحليل أن يكون أبوحمزة الشاري حاملا هذا الالتزام الأخلاقي ، فقد استشهد هو وأصحابه في سبيل العقيدة الدينية ، إنه التزام أخلاقي لامثيل له بالرغم من العذاب الحريق الذي سلط عليهم ، صلبا وحرقا . (83) .

يقول الإمام الشهيد سيد قطب - رحمه الله - (وما تملك عقيدة أخرى - غير العقيدة الدينية - أن تصل الكائن الفاني بقوة الأزل والأبد ، وأن تمنح الفرد الضعيف ذلك العون والسند ، وأن تصغر في عينه قوى الجاه والمال ، وقوى المركز والسلطان ، وقوى الحديد والنار ، وأن تصبره على الحرمان والأذى ، وتقدره على الصبر والكفاح ، وتدفعه الى الموت الذي يخلق الحياة ، والفناء الذي يمنح الخلود ، والتضحية التي تورث النص) (84) .

وهكذا نجد أن هذه الحركة الإباضية ، قد استهانت بكل شيء في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل من أجل الدفاع عن المنهج الإسلامي الأصيل بحيث وجدت كل قوتها وسندها الأول في العقيدة الدينية الراسخة في قلوبهم التي استصغرت السلطة الأموية الطاغية ، رجالها وعذابها .

(83) كتاب الأغاني : ج : 23 ، ص : 144 .

(84) سيد قطب السلام العالمي والإسلام ص : 6 .

هذه الحركة كادت أن تعصف نهائيا بتلك القوة الطاغية في عقر دارها لولا تعجيلها بأشغال ثورتها في شمال الحجاز .
وهنا نتساءل ما هي خصائص أدب هذه الحركة الإباضية وبما ذا يتميز عن الأدب الأموي والشييعي في تلك الفترة الزمانية .

3 - أثر الأخلاق القرآنية في أدب هذه الحركة الإسلامية :

مما لاشك فيه أن المشكلة الأخلاقية قد لازمت الإنسان منذ وجوده الى يومنا هذا . لأن الإنسان في صراع بين الخير والشر وبين الحق والباطل وهذا يعود الى الثنائية الموجودة فيه .

وهكذا نجد الإنسان لا يخلو من العقل المحض ، والغريزة الحيوانية ، بل يجمع بينهما . واعتمادا على هذه الواقعة ، نلاحظ أن القرآن الكريم ، يذكر الإنسان بالخير الذي فطر عليه ، وبالشر الذي جبل عليه ، ولذا فإن الأخلاق القرآنية ، تدعونا الى تهذيب النفس ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات : 41/40) .

وغني عن البيان أن الرسول الكريم قد جسد الأخلاق القرآنية في سلوكه ، يقول الله عز وجل في حق رسولنا : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم : 4) ويقول الرسول الكريم : «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»

وفي ضوء هذا ، فإن الأخلاق الإسلامية تقوم أساسا على العمل الصالح ، لقوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر : 3/2/1) .

فليس خافيا علينا ، أن نقول : إن ما أصاب العالم الإسلامي في الماضي والحاضر من انحطاط يعود بالدرجة الاولى الى الفساد الخلقي واستبداد السلطة السياسية .

وعلى هذا الحال ، يتجلى لنا أن هناك خروجاً عن الدين ، بسبب الانشطارية بين القول والعمل الإسلامي الصالح وعندما تقارن بين المجتمع المسلم في عهد حكومة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وبين الدولة الأموية وبعدها ، نلاحظ أن هناك فرقاً واسعاً بين المجتمعين بسبب عدم تحكم شريعة الاسلام في المجتمع الثاني الذي يظهر فيه الجانب الانتسابي لا أكثر ، ولولا بعض الرجال المخلصين الأوفياء الداعين الى منهاج الاسلام الأول لانهدمت أركانه الثابتة وبالتالي أثره .

واعتماداً على هذا ، فإن الحركة الإباضية جاءت بأخلاق قرآنية بينت للمجتمع الإسلامي آنذاك أن هناك انحرافاً عظيماً وقع في المجتمع الأموي وإذا أردنا أن نكون موضوعيين بما قلناه ، فلا بد أن نقدم نصوصاً واضحة من هذه الحركة الإباضية لتعزز فكرتنا وذلك من خلال خطبة أبي حمزة الشاري التي بين فيها تلك الأخلاق القرآنية لأهل المدينة لما دخلها 130 هـ .

قال : (يا أهل المدينة ، أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ، ولا عبثاً ولا لهواً ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا ثأراً قديماً نيل منا ، ولكننا لما رأينا مصاييح الحق قد عطلت ، وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعياً يدعو الى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، فأجبنا داعي الله ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ (الاحقاف : 32)

فأقبلنا من قبائل شتى ، نفر منا على بغير واحد ، عليه زادهم وأنفسهم ، يتعاورون لحافا واحدا قليلون مستضعفون في الأرض ، فأوانا الله وأيدنا بنصره وأصبحنا والله حميد بنعمته ، ثم لقينا رجالكم يقْدِيد فدعوناهم الى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعوناهم الى نبذ طاعة الشيطان وحكم مروان ، شتان لعمر الله ما بين الغي والرشد ، يا أهل المدينة ، إن أولكم خير أول ، وآخرك شر آخر ، يا أهل المدينة ، الناس منا ونحن منهم الا مشركا عابد وثن ، أو كافرا من أهل الكتاب أو إماما جائرا (85) .

من خلال هذا النص يتبين لنا أن الهدف الأسمى الذي سعى اليه ، أبو حمزة الشاري ، هو تصحيح المفاهيم الفاسدة المتسربة في مجتمع المدينة المنورة نحو الثورة التي أعلنها طالب الحق على الدولة الأموية الجائرة . ومن البديهي جدا ، أن يعمد خصوم الإباضية الى وصمهم بالكفر والمروق عن الإسلام ، بيد أن أبا حمزة الشاري بين أن هذه الثورة الإسلامية قائمة على أسس القرآن الكريم والسنة الطاهرة .

يقول أبو حمزة الشاري ، لم نخرج من ديارنا وأموالنا متجبرين ولا عابثين ، ولا لاعبين ، ولا ساعين الى سلطة الدولة وهيمنتها .

ولكن نداء الضمير الديني هو الذي أخرجنا الى الجهاد ، لما رأينا أن الفضيلة الأخلاقية قد مزقت ، فأمسى القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقتولا .

وهكذا أصبحت الأرض ضيقة بما رحبت بسبب الفساد الخلقي في

(85) الأغاني : ج : 23 ص : 133/132 .

مجتمعنا الإسلامي هذا ، إن ولّاتكم ي أهل المدينة ، صيروا الرذيلة الأخلاقية فضيلة ، والفضيلة رذيلة ، ثم أمسى الحكم يستمد سلطته من الشيطان بدلا من القرآن الكريم .

وفي ضوء هذه الحالة العارمة بالفساد الخلقي فان الله عزوجل قد أسمعنا نداءه القرآني الداعي الى الجهاد ، حتى نغير هذه الوضعية الشاذة عن المجتمع الإسلامي ، وهذا لن يكون الا بالجهاد حتى يتحقق المجتمع القرآني الذي هو بعيد كل البعد عن المجتمع الجاهلي ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ (المجادلة : 19) .

إن هذه الحالة الشيطانية موجودة فعلا عند بعض الملوك الأمويين لاسيما الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

يقول ابن عبد ربه أبو عمر أحمد (ولهج الوليد بالنساء والشراب والصيد ، فأرسل الى المدينة فحملوا له المغنيين ، فلما قربوا منه أمر أن يدخلوا العسكر ليلا ، وكره أن يراهم الناس فأقاموا حتى أمسوا غير محمد بن عائشة ، فإنه دخل نهارا ، فأمر الوليد يوما فطرب فكلمه معبد ، فأمر الوليد بإخراجه ودعاه فغناه) (86) .

لقد جاء في كتاب الأغاني ما يلي : (وقال هرون في خبره : أخبرني عبده الملك بن الماجشون قال : لما التقى أبو حمزة وابن عطية قال أبو حمزة لاتقتاتلوهم حتى تخبروهم ، فصاح بهم : ما تقولون في

(86) كتاب العقد الفريد ، ج : 3 ، ص : 455 .

في القرآن الكريم والعمل به ؟ فصاح ابن عطية نضعه في جوف الجوالق
قال : فما تقولون في مال اليتيم ؟ قال نأكل ماله ه ونفجر بأمه (87) .
هذه هي الصورة الملوثة عن بعض أمراء الأمويين بحيث نجد أن
هناك فجوة كبيرة بين أخلاق المجتمع المسلم الذي عاش فيه الرسول ،
والمجتمع الذي ظهر بعده .

وعلى أية حال فإن أبا حمزة الشاري قد أدرك كل الإدراك بأن
إصلاح هذا الفساد الخلقي لن يكون الا بالتربية الدينية والتركيز على
الضمير الديني يقول رحمه الله : (ياأهل المدينة ما تغني عنكم صحة
أبدانكم اذا سقمت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سببا غالبا يقاد
له ، ويطيع أمره ، وجعل القلوب غالبية على الأبدان ، فاذا مالت القلوب
ميلا كانت الأبدان لها تسعا ، وإن القلوب لاتلين لأهلها الا بصحتها ، ولا
يصحها الا المعرفة بالله وقوة النية ونفاذ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى
الله قلوبكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم) (88) .

ومن هذا يتضح أن ثورة طالب الحق جاءت لتغيير الوضعية الفاسدة
في المجتمع للإسلامي . لإعلاء كلمة الله وتحقيق العدالة الإلهية الحققة
لدفع الظلم ورد البغي والعدوان حتى يكون الدين كله لله ، ولا يتخذ
الناس هذه السلاطين أربابا من دون الله .

وانطلاقا من تلك المساواة الإسلامية الحققة فإن طالب الحق يقول في
إجدى خطبه لأهل اليمن (الإسلام ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ،

(87) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، ج : 23 ، ص : 145 .

(88) الأغاني : ج : 23 ، ص : 134 .

والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلال حلالا ، لانبغي به بديلا ، ولا نشترى به
ثمنا قليلا ، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ولا حول ولا قوة الا
بالله (89) .

أما حمزة المختار الشاري فيقول : (فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ،
ولاطاعة لمخلوق في معصية الخالق . ندعوكم الى كتاب الله ، وسنة نبيه
والقسم بالسوية والعدل في الرعية) (90) .

هذه هي الصورة المصغرة للالتزام الأخلاقي عند الحركة الإباضية
وهذا الالتزام لم يكن قولاً بل كان جهادا إسلاميا خالصا ﴿يجاهدون
في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ (المائدة : 54) .

فليس غريبا ، بعد هذه الشهادة الواضحة أن يكون شعراء هذه الحركة
الإباضية يلتزمون بهذا المنهج القويم ، لاسيما الشاعر عمرو بن الحصين
العنبري يرثي عبد الله بن يحيى وأبا حمزة الشاري في قصيدته الطويلة
التي تشمل على خمسة وخمسين بيتا .
يقول في آخر قصيدته : (91)

وهم مساعِرٌ في الوغى رُجِحَ وخيار من يمشي على العفر
حتى وفوا لله حيث لقوا بعهود لا كذب ولا غدر
فتخالسوا مهجيات أنفسهم وعاداتهم بقواضب بتر

(89) الأغاني : ج : 23 ، ص : 114 .

(90) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج : 4 ، ص : 145 .

(91) الأغاني : ج : 23 ، ص : 154 . شرح بعض الألفاظ : المشاعر : الشجعان . العفر :
التراب . تخالسوا : أرادوا القتال . مهجيات : الأرواح . عاداتهم : ج : العدو . قواضب بتر :
سيوف قاطعة . العجاج : الغبار . تفرجت : توسعت . كُماتهم : الخيول ما كان لونها الأسود
والأحمر .

تحت العَجَاج وفوقهم خِرَق يخفقن من ســــود ومن حمر
فتفرجت عنهم كَمــــاتْهم لم يغمضوا عينا على وتر
فشعــــارهم نيران حربهم مــــا بين أعلى السحر والنحر
ومن خلال هذا الأدب الالتزامي نلاحظ بكل يقين أن هذا الأدب هو
أدب العقيدة والجهاد والتضحية والدفاع عن مبادئ الاسلام الحنيف ، لقد
 قيل في ساحة الوغى والشرف ، ولم يقل في ظلال قصر الملك
والتعصب لهم وتبرير أخلاقهم الفاسدة .

إن هذا الأدب الإباضي قد تأثر بالقرآن الكريم أسلوبا وأخلاقا ، ولم
يكن هذا الأدب غاية بقدر ما كان وسيلة ، لإعلاء كلمة الله والجهاد
حتى تسود العدالة الإسلامية وكرامة الإنسان والدعوة الى المساواة
ومحاربة مظاهر التعصب بحيث نلاحظ أنه عكس لنا الإيمان الصادق
والتضحية بالنفس لتحقيق حكم الله ﴿إن الحكم الا لله أمر ألا
تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾ (يوسف : 40)

ومن هنا نرى أن هذا الأدب يختلف عن الأدب الأموي والأدب
الشيعي وذلك أن الأدب الأموي يتميز بالذاتية وطلب اللذة ومدح الطغاة
والاستجداء بهم .

4 - السلطة الأموية وأدب الانحلال :

إذا قرأ الناقد الأدب الأموي ، يلحظ أن الشاعر الأموي يمدح أو يهجو
على حسب مصلحته التي تدفعه لذلك .

ومن هنا أمسى الأدب عند الشاعر وسيلة من وسائل الارتزاق وقد
تميز بالردة الجاهلية ، بل دافع ورفع من قيمة العنصر العربي والتعصب

أما بالنسبة الى شعراء الشيعة الذين مدحوا آل البيت ، فإن مدحهم تميز بالتقية والحزن والأسى الشديد على آل البيت الذي ضاع حقهم .

لقد قال الكميّ بن زيد الأسدي في مدح الهاشمين :

بني هاشم رهط النبي فإني بهم ولهم أرضى مرارا وأغضبُ
خفّضت لهم من جناحي مودة الى كنف عطفاه أهل ومرحبُ
بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا عليّ وتحسبُ
لقد قلنا فيما أسلفنا : إن الأدب الإباضي قد تميز بالالتزام الاسلامي ،
وهذه الحقيقة نلاحظها جلية في خطب وشعراء الإباضية ، وذلك أن
مدحهم كان غاية في حد ذاته ولم يكن أبدا وسيلة الى التكسب
والارتزاق والدفاع عن الطغاة كما هو الشأن عند الشعراء الأمويين .

ومن هنا نلاحظ أن مدحهم ارتكز أساسا على القيم الأخلاقية القرآنية ،
كالإيمان ، والتقوى والجهد والصبر ، فكان ذلك المدح صادقا كل الصدق ،
وبعيدا كل البعد عن مظاهر الرياء والنفاق والغلو ، حتى لانكاد أن نفرق
بين المادح والمدحون طالما أن القيم هي القاسم المشترك بينهما .

يقول عمرو بن الحصين في مدح أصحابه الذين انتصروا في وقعة
قديد على جيش الدولة الأموية :

تلقاهم فتراهم من راکعٍ أو ساجد متضرعٍ أو ناحبٍ
ومبرئين من المعائب أحرزوا خصل المكارم أتقياء أطايبٍ
في كل معترك لها من هامهم فلق وأيدٍ علقت بمناكب
سائل يوم قديد عن وقعتها تخبرك عن وقعاتها بعجائب (94) .

(94) الأغاني : ج : 23 . ص : 130 .

ومن خلال هذا الأدب الالتزامي الذي يتناقض مع سياسة الدولة الأموية التي أوجدت أدبا منحلا ومرتدا يسبح بحمد الطغاة وإثارة النعرات القبلية والدوافع الجنسية ، والهدف من كل هذا ، هو تخدير المجتمع الإسلامي ، فكيف ظهر ذلك الأدب ؟

يقول شهيد القرآن السيد قطب رحمه الله : (أدب الانحلال هو في الغالب أدب العبيد : عبيد الطغيان ، أو عبيد الشهوات . عندما أراد الأمويون أن يأمّنوا أهل الحجاز ، وأن يستبدوا دونهم بالملك ، وأن ينحومهم عن الحياة العامة ، غمروا سادتهم وأشرفهم بالمال والاقطاعيات والهبات ، وجلبوا اليهم المغنيين والمُلهين والجواري ، وزينوا لهم حياة الدعة والترف ، وأطلقوا عليهم الشعراء المجان يدغدغون غرائزهم في القصور بأناشيد الشهوة ، وفي الوقت ذاته انطلق الشعراء يمدحون الملوك الطغاة ويسبحون بحمدهم ، ويصوغون حولهم الهالات)(95) .

هذه هي الحقيقة الأساسية التي برزت واضحة في الدولة الأموية ، والتي لم نذكر فيها بعد أدب النقائص وأدب المجون في هذا الفصل الأخير ... أما إذا عدنا الى أدب النقائص الذي يقصد به المعارك الأدبية التي أحييت الصراعات القبلية والافتخار بالآباء والأجداد وكان من أبرز شعراء هذا الفن : الأخطل وجريير والفرزدق ، وقد شجع بنو أمية هذا الأدب اللاأخلاقي ليعبدوا المسلمين عن السلطة السياسية حتى لا يثوروا على الجاهلية الأموية .

(95) سيد قطب : دراسات إسلامية ص : 147 .

يقول الفرزدق مفتخرا بقومه ومجده على قوم جرير :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول
بيتا بناه لنا المليك وما بنى حكم السماء فإنه لا ينقل
ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل
أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل
إن هذه النقائص لاتجدلها مكانا في الأدب الإباضي الذي يرفض هذا
الإسفاف الفكري ، الذي يتنافى مع الأخلاق الإسلامية .

أما إذا تأملنا أدب المجون والخمر نلاحظ أن الدولة الأموية قد
شجعت هذا الفن لتخدير الناس حتى لا يصطدموا مع السلطة ، ولقد
انعكس هذا الأمر على أغلبية الشعراء ، ولعل هذه الأبيات التالية لعمر
بن أبي ربيعة الذي يصف مغامرة غرامية مع فتاة اسمها نَعْمُ اذ يقول :

وغاب قُميرٌ كنت أهوى غيوبه وروح رعيان ونوم سمر
فبت قرير العين أعطيت حاجتي أقبل فاهها في الخلاء فاكثُر
فيالك من ليل تقاصر طوله وما كان ليلي قبل ذلك يقصر
أما الخليفة الأموي الوليد بن يزيد فيقول :

أشهد الله والملائكة الأب رار والعابدين أهل الصلاح
أنني أشتهي السماع وشرب ال كأس والعض للخدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفا ره يسعى عليّ بالأقداح (96)
ويقول في خمريه أخرى :

(96) الأغاني : ج : 23 ، ص : 23 .

أُصْدِعْ نَجِيئِي الهموم بالطرب وانعم على الدهر بآبنة العنب
من قوة زانها تقادمها فهي عجوز تعلو على الحقب
أشهى الى الشرب يوم جلوتها من الفتاة الكريمة النسب
ولقد اتسع هذا الفن حتى أمسى الشاعر يصدع بخمرياته ولا يريد أن
تفارقه حيا أو ميتا . تأمل ما قاله غالب بن عبد القدوس :

اجعلوا - إن مت يوما - كَفَنِي وَرَقَ الكرم وقبري معصره
وادفنوني وادفِنُوا الرَّاحَ معي واجعلوا الأقداح حول المقبره (97)
ويجد ربنا قبل نهاية هذا الفصل أن نشير الى أن هناك بعض شعراء
الزهد الذين رفضوا الحياة المأجنة ودعوا الى العمل الصالح والتقوى
بحيث عاشوا للأخرة ، ومن بين هؤلاء أبو الأسود الدؤلي ، وسابق
البربري .

5 - مظاهر الزهد في أدب أهل الدعوة والاستقامة :

ولكي نعطي القارئ الكريم فكرة صحيحة عن هذه الحركة
الإباضية ، نستعرض بعض النصوص الأدبية التي تؤكد لنا أن هذه الحركة
كانت بعيدة عن مظاهر العبودية والانحلال الخلقي ، وهكذا فإن أدب
هذه الحركة كان أدب الإسلام الملتزم بقضاياه الإنسانية العالمية ، إنه
يدعو الى الجهاد والتضحية بالنفس في سبيل إعلاء حكم الله ، فليس
غريبا بعد هذه النظرة ، أن يكون أدب هذه الحركة قد تأثر بالقرآن

(97) راجع : أ - عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي . ب - شوقي ضيف : العصر
الاسلامي .

هذه هي الصورة الناصعة لأدب الحركة الإباضية الذي تميز بالإيمان العميق ، والشجاعة والعفة والتقوى والصبر .

وأخير : نقول : إن الأدب عند هذه الحركة كان وسيلة لتحقيق المجتمع الإسلامي النظيف ، ومن هنا كان هذا الأدب صادقا يخاطب المؤمن الصالح الملتزم بأخلاق القرآن .

ومن خلال هذه الصورة المشرقة ، الخالصة نلحظ أدب هذه الحركة يمثل الالتزام والتحدي والفداء والثورة الصادقة على مظاهر الفساد الخلقي والاستبداد والظلم والانحراف عن القرآن .

وأخيرا فلعلني أكون قد كشفت عن أحد روافد تاريخنا الإسلامي العظيم الذي لازلنا نبحث عنه و هو أدب القرآن الكريم.

الخاتمة

إن النظرة النقدية القائمة على الموضوعية والروح العلمية تثبت بما لامجال للشك فيه ، أن هذا البحث استطاع أن يقدم للقارئ الكريم صورة موضوعية مركزة ، عن الحركة الإباضية التي ظهرت في آخر الدولة الأموية من الزاوية التاريخية ، والتربوية والأدبية ، وهو يمثل تراثا إسلاميا خالدا بدون جدال .

إن هذه الدراسة قد تميزت بالطابع الاستقرائي ، لأنها اعتمدت قبل كل شيء على النصوص المباشرة القديمة التي أزلت كل إبهام ولبس ، وغموض ، فتجعل القارئ يطمئن الى منهجها الذي سلكناه ، في هذه الدراسة .

ويمكننا أن نقول ونحن واثقون بأن ثورة طالب الحق وبطولات أبي حمزة الشاري جديرة بالدراسة والتحليل في تاريخنا الإسلامي الذي قاوم مظاهر الطاغوت ، والانحرافات الأخلاقية ، لأن دراسة التاريخ تهدف بالدرجة الأولى الى تربية الانسان ، وأخذ العبر من الماضي .

يقول الأستاذ الكريم محمد قطب : (ولكن دراسة التاريخ بالذات هي من القضايا التربوية المباشرة ، اذا وضعنا في اعتبارنا أن التاريخ ليس مجرد سرد للأحداث التاريخية ، إنما هو الى جانب ذلك تفسير لتلك الأحداث وتقويم لها) (99) .

(99) محمد قطب ، حول التفسير الإسلامي للتاريخ ص : 5 .

بيد أن الدارسين مع الأسف الشديد تجاهلوا دراسة هذه الحركة ، وإعطاء أبعادها الحقيقية ، بحيث بقيت في سجل النسيان لأسباب تاريخية قد شرحناها أثناء التحليل . وإن الخطأ الجسيم الذي وقع فيه خصوم الإباضية قديما وحديثا ، يعود في أغلب الحالات الى تمسكهم الكلي بكتاب المقالات القديمة ، دون نقدها ، وعدم الرجوع الى المصادر الإباضية بدعوى أنها تمثل مذهباً خارج المذاهب الأربعة .
وغني عن القول أن الاختلاف حاصل في كل المذاهب الإسلامية نتيجة الاجتهاد في بعض الفروع الفقهية لأكثر .

وإن الشيء الذي نرفضه كل الرفض هو التعصب المذهبي ، وعدم احترام رؤية الآخرين .

يقول الشيخ محمد الغزالي : (والشيء الذي نرفضه ويرفضه جمهور العقلاء أن يحسب أحد الناس أن رأيه دين ، وأن ما عداه ليس بدين ، وأن يجمد على ما عنده جموداً قد يضر بالاسلام كله ويصدع وحدته .
وكأن الذين خاضوا هذه المعارك الجدلية يقصدون قصدا الى تمزيق المسلمين وإهانة معارضيهم في الفكر بعلة مختلفة) (100) .

ولابد من مجابهة ذاتنا إسلامياً مع المحاسبة لأننا نتحمل التبعية الجزائية أخلاقياً ، واجتماعياً ودينياً وتربوياً إزاء الجيل المسلم البريء .
ومن هنا فإن الشهيد أبا حمزة الشاري ، جدير أن يكون مثالا يقتدى به بجهاده وأخلاقه المتجلية في هذه المقولة المشهورة : (الناس منا ونحن

(100) محمد الغزالي : دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص : 107 .

منهم ، إلا مشركا عابد وثن ، أو كافرا من أهل الكتاب ، أو إماما جائرا (101) .

إن هذه الفكرة هي القاسم المشترك الموحد لمختلف المذاهب الإسلامية كلها ، لأنها استمدت روحها من القرآن الكريم والسنة . بحيث تتحطم على تلك المقولة جميع المؤامرات الشيطانية الهادفة الى تمزيق وحدة الأمة الإسلامية الى يومنا هذا .

وأخيرا أرجو أن يكون هذا الموضوع قد وفيت بعض حقه وليس كل حقه للوصول الى الحقيقة والله هو الموفق لما فيه الخير والعمل الصالح وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ربنا ارحمنا وأنت خير الراحمين . أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

أهم مصادر البحث

- 1 - القرآن الكريم .
- 2 - الإمام الشيخ اطفيش محمد بن يوسف . شرح كتاب النيل وشفاء العليل ط : 2 - دار الفتح ، بيروت .
- 3 - ابن جميع أبو حفص عمر : مقدمة التوحيد شرح الشماخي أبو العباس والتلاتي سليمان ط : 2 ، الجزائر : 1392 هـ .
- 4 - ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة ، دار التونسية للنشر : 1984 .

- 5 - ابن عبد ربه أبو عمر احمد : العقد الفريد دار الكتاب العربي
بيروت : 1983 م .
- 6 - أبو الفرج الأصفهاني كتاب الأغاني ط : 5 ، دار الثقافة
بيروت : 1981 .
- 7 - أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر كتاب سير الأئمة وأخبارهم تحقيق
عبد الرحمن أيوب الدار التونسية للنشر 1985 م .
- 8 - أبو العباس المبرد الكامل ج : ٣ ، ط : 1 - 1937 م ، مطبعة
البابي الحلبي مصر .
- 9 - أكرم ضياء العمري ، تاريخ خليفة بن خياط المتوفى 240 هـ ،
ط : 3 ، دار طبية الرياض .
- 10 - أبو الأعلى المودودي : الخلافة والملك شركة الشهاب باتنة
الجزائر : 1988 م .
- 11 - الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد ، كتاب طبقات المشائخ
بالمغرب ، تحقيق ابراهيم طلاي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1974 .
- 12 - الربيع بن جبيب بن عمرو الفراهيدي الأزدي الجامع الصحيح ،
ترتيب الشيخ أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني ، ط : 2 ،
المطبعة السلفية القاهرة : 1349 هـ .
- 13 - الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد ، كتاب السير ، تحقيق
احمد بن سعود السيابي ، وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان
1987 م .
- 14 - عوض خليفات ، نشأة الحركة الإباضية مطابع دار الشعب ،
عمان ، الأردن ، 1978 .

- 15 - محمد الغزالي ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، دار الكتب الجزائر 1988 .
- 16 - محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ الناشر المجموعة الإعلامية الكويت ط : 1 / 1988 .
- 17 - المسعودي أبو الحسن علي بن الحسن : مروج الذهب ومعادن الجوهر ط : 3 ، دار الأندلس ، للطباعة والنشر بيروت : 1891 م .
- 18 - معمر ، علي يحي ، الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، ط : 2 ، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر ، 1988 م .
- 19 - العلامة نور الدين عبد الله بن حميد السالمي تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان تحقيق أبو إسحاق إبراهيم أطفيش ، مطبعة الشباب القاهرة : 1350 هـ .
- 20 - مهدي طالب هاشم ، الحركة الإباضية في المشرق العربي ، دار الاتحاد العربي للطباعة ، القاهرة : 1981 م .
- 21 - يحي محمد بكوش فقه الإمام جابر بن زيد ، المطبعة العربية غرداية ، الجزائر : 1988 م .

الفهرس

6	كلمات إسلامية مضيئة
7	مقدمة
11	الفصل الأول
11	أهل الدعوة في ظل التاريخ الإسلامي
11	1 - نحن والتاريخ
13	2 - ما هي الرؤية الإسلامية المفسرة للتاريخ ؟
18	3 - أهل الدعوة وكتاب المقالات قديما وحاضرا
22	4 - وقفة مع الإمام أبي الأعلى المودودي
23	5 - تهافت المغالطة القائلة بأن أهل الدعوة خوارج
23	6 - تهافت المغالطة القائلة بأن أهل الدعوة والحق هم أقرب الى أهل
29	السنة والجماعة
33	7 - أهل الدعوة واثارهم الفكرية
34	8 - لمحات عن نشأة مذهب أهل الدعوة
37	9 - عقائد أهل الدعوة والاستقامة
41	الفصل الثاني
41	ظهور الحركة الإسلامية في حضرموت واليمن والحجاز
41	1 - لمحة تاريخية عن الدولة الأموية

44	2 - التاريخ السياسي لأهل الدعوة
45	أ - الإمام جابر بن زيد . ب - أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة .
48	3 - دعاة أهل الدعوة في شمال إفريقيا والجزيرة العربية
49	4 - ثورة طالب الحق ورأئدها الأول أبو حمزة المختار الشاري
51	أ - طالب الحق نسبه وجهاده وأخلاقه
51	ب - انتصار ثورة طالب الحق في حضرموت
54	ج - انتصار ثورة طالب الحق في اليمن
56	د - القائد أبو حمزة المختار الشاري يدخل مكة والمدينة
57	1 - أبو حمزة المختار الشاري حياته ، وجهاده
62	2 - استشهاد أبي حمزة المختار الشاري في ساحة الشرف
64	5 - الإمامة الإسلامية ، تغيب في حضرموت وشرق في عُمان
66	6 - كيف ولماذا سقطت الدولة الإسلامية باليمن والحجاز
70	7 - ظهور الإمامة الإسلامية في عُمان
73	الفصل الثالث
73	الالتزامات الأخلاقية في أدب هذه الحركة الإسلامية المجاهدة
73	1 - لماذا تدرس النصوص الأدبية من الزاوية التاريخية ؟
74	2 - الأدب والالتزام الأخلاقي
77	3 - أثر الأخلاق القرآنية في أدب هذه الحركة الإسلامية
83	4 - السلطة الأموية وأدب الإنحلال
88	5 - مظاهر الزهد في أدب أهل الدعوة والاستقامة
91	الخاتمة
	أهم مصادر البحث

المطبعة العربية

نهج طالي أحمد غداية

الايداع القانوني رقم 69 5 1992

